بوريس أسويان

جمهورية جنوب افريقيا

ماذا ينتظرها؟

بوريس أسويان

جمهورية جنوب افريقيا:
ماذا ينتظرها؟

موسكو، عام ١٩٨٨

ترجمة: عادل الجبوري

0805000000

المحتويات

– احلك تنبؤ ٥

– تشتت فى «القبيلة البيضاء» ١٨

– بوتا ضد جمهورية جنوب افريقيا ٢٧

– المورغينزونيون والكيبليند يون ٤١

– مع من؟ ٥٣

– «نحن بحاجة الى مانديلا!» ٦٢

– هل يمكن تبرير العنف؟ ٧٧

أحلك تنبؤ

... صباح مشرق ليوم اعتيادى فى مدينة افريقية كبيرة. والساعة المثبتة فى برج الكنيسة تشير الى السابعة وخمس واربعون دقيقة. الكل مستعجل الى عمله. والطابور طويل امام موقف الباص. فى التقاطع اصطدمت سيارتان مما ادى الى اصطفاف سيارات عديدة فى طوابير طويلة. صارت ابواب المخازن تفتح واحدا بعد الاخر. وظهر اول المشترين فى الاسواق العامة، وصارت تسمع قهقهة الاطفال وهم يلعبون فى الحدائق الغناء.

وفجأة يسطع وهج سماوى مخيف. ويتحجر كل شيء فى مكانه، وتتشخص فى السماء فى صمت مطبق غمامة متزايدة فى الكبر تشبه نبات الفطر. وفى اللحظة القادمة يختفى البشر والسيارات. بعد ذلك يدوى صوت الانفجار الرهيب الذى لم يبق على قيد الحياة من يسمعه. وتبدأ طبقات دخان اسود تغطى كل شيء حولها لمسافة عشرات الكيلومترات، تغطى الارض المحروقة والانقاض المحترقة واجساد البشر والحيوانات المتفحمة.

خلال دقائق معدودات قضى على اكثر من ١٠٠ الف

انسان من بينهم من اصيب بجروح قاتلة، واكثر منهم هام على وجهه هاربا من المأساة.

وفى المناطق المجاورة لمركز الانفجار انتشرت اوبئة عجزت السلطات الحاكمة عن وقفها: فوسائل النقل والطرق محطمة والاطباء شحيحون وكذلك الادوية.

وعم اليأس افريقيا برمتها.

وبعد الانفجار بثلاثة ايام تدخل قوات جيش جمهورية جنوب افريقيا اراضى عدد من الدول الافريقية. فى نفس الوقت يجرى فى عواصم تلك الدول انزال عسكرى من الجو وتتم السيطرة على المراكز الحساسة فيها كقصور رؤساء الجمهورية ومحطات الاذاعة والتلفزيون والبريد والبرق...

كل ذلك لم يجر بعد، لكنه من يضمن عدم وجود سيناريو لذلك فى محفظات كتب عليها «سرى للغاية» موضوعة فى خزانة احد جنرالات جنوب افريقيا؟

والجدال بخصوص امكانية استخدام جنوب افريقيا الاسلحة النووية ام لا، واذا صح ذلك فضد من يحتد من يوم لاخر. يعتقد بعض الباحثين ان بريتوريا لن تتردد فى استخدامه فى حالة ظهور خطر حقيقى يهدد نظام الفصل العنصرى هناك. فبيانات حكام جمهورية جنوب افريقيا انفسهم تظهر ان القنبلة النووية بالنسبة لهم ليس مجرد «وسيلة ردع». فقد حددت على الخارطات العسكرية فى جمهورية جنوب افريقيا اهداف يتوجب مسحها من على وجه الارض بضربة نووية. فالاستعداد الدائم لجنوب افريقيا للعدوان يعتبر اثباتا آخر على انهم

فى بريتوريا لا يترددون كثيرا عند وضعهم عملية دمار شامل او عملية ترويع.

لقد حذرت مجلة «ويست ايفريكا» الصادرة فى لندن، حذرت عام ١٩٨٦ قائلة: «رغم سعة التأثير السلبى على الرأى العالمى الذى يمكن ان يتسبب به مثل ذلك الهجوم، فأن نظام بريتوريا سوية مع اصدقائه يعرض قابلية متنامية للتعتيم على ذلك التأثير. ومع مرور الوقت يمكن حتى للهجوم النووى ان ينحسر من عناوين الصحف والوعى الاجتماعى فى الغرب».

ومن يضمن انه وفى مثل تلك الظروف لم يجرؤ العنصريون على استخدام السلاح النووى وحتى على اراضيها؟ فى عام ١٩٧٧ اوردت صحيفة «نيويورك تايمس» كلمات احد المحاسين من جوهانسبرغ حيث قال «اما فيما يخص الافارقة فأن جمهورية جنوب افريقيا التى تعجز عن كبح جماحهم مستعدة للقضاء عليهم. اما الاسقف ديزموند توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام، رئيس الكنيسة الانجليزية فى جمهورية جنوب افريقيا فقد صرح فى عام ١٩٨٧ قائلا، لن استغرب اذا سمعت ان حكومة الاقلية البيضاء عازمة على استخدام السلاح النووى مطبقة بذلك احد طرق سياسة الارض المحروقة.

من المعتقد انهم فى بريتوريا يعتبرون طرق استخدام السلاح النووى كوسيلة للتهويل امام شركائهم الغربيين ايضا. واذا ما اجبر الغرب تحت ضغط الرأى العام على فرض عقوبات جادة على نظام الفصل العنصرى فستقوم بريتوريا بالتهديد بالسلاح النووى من اجل خلق نزاع دولى.

والقنبلة الذرية يمكن اعتبارها وسيلة للردع فى ظروف اكثر ملاءمة وحينما يتفق الهجوم الخارجى فى الوقت مع الاضطرابات الداخلية — هذا ما يدعيه مايك سبايسر نائب مدير معهد العلاقات الدولية لدى جامعة فيتفاتيرسراند. وحتى فى مثل هذه الحالة من المربح الابقاء على العدو خارج دائرة النظر.

ويضيف مايك سبايسر: التهديد بامتلاك السلاح النووى من وجهة النظر السياسية والدبلوماسية اكثر فاعلية من امتلاكه حقا. ذلك ان بريتوريا باستطاعتها ودون بذل جهود جهيدة الحصول على التنازلات التى ترنو اليها.

ورغم سماع تنبؤات حالكة فى الفترة الاخيرة لا يقر معظم الافريقيين الجنوبيين امكانية وقوعها. وربما انهم مجرد لا يريدون حتى التسليم بامكانية وقوع ذلك فى بلادهم، او انهم يحاولون عدم الاكتراث بحقائق مبصورة: فبدونها هناك الكثير من الويلات والدم المراقة فى حياتهم اليومية. ومهما ارادوا التسليم بحتمية وقوع الويلات والمآسى، فلا يمكن ان يسلموا بوقوع كارثة نووية.

بدورنا نحن ايضا نرفض التسليم بمثل هذه الامكانية. لكن مجرد تفكيرنا بان هذا السلاح الفتاك موجود فى يد دولة تعتبر المذنبة فى حدوث واحد من اقسى وأحد النزاعات فى عالمنا المعاصر خرج بعيدا عن الاطر الاقليمية، يقلقنا اشد القلق، اضافه الى ان انفجار هذا النزاع الذى يشمل اليوم اكثر من عشر دول عدد نفوسها حوالى ١٠٠ مليون نسمة ممكن

الحدوث فى اية لحظة، وقياسا بالامور جميعها سيمضى هذا النزاع قدما فى تهديد ليس فقط منطقة جنوب افريقيا، وانما الامن الدولى ايضا. فى الحقيقة ليس هناك ما يغرى للتنبؤ بمستقبل جمهورية جنوب افريقيا ما عدا «التحذير الذى قد ابديناه سابقا». فللاسف تختفى داخل التقاطع التاريخى الحالى جميع الطرق المؤدية الى غدها فى ضباب اقرب انعكاس ضوئه الوردى الى لون الدم منه الى وهج فجر سلمى. فقد تجمع الكثير من الكراهية والالم داخل البلاد التى قطعها الفصل العنصرى الى اوصال وصار من المستحيل تحقيق الفرج دون دمار وضحايا.

ويتوجب على المرء ان يكون متفائلا لكى يعتبر ان مصائب شعب جنوب افريقيا قد انتهت، ويكفى ابداء اقل قدر من الارادة الخيرة لكى تنتهى الازمة ويتم القضاء على الذل والعذاب وتتحقق سلطة العدالة ويحل السلام والاستقرار فى كل منطقة جنوب افريقيا. واذا ما وقعت هنا او هناك صدامات معينة من اجل الغد، واذا ما دوت طلقات فذلك مجرد استطلاع ميدانى وعرض للنوايا. ولا يعـــــرف احـــــد متى ستقع المعركة الرئيسية، وهــــــل ستحدث فى سوح المعـــــارك ام على طاولـــــة المباحثـــــات لكـــــن حتميـــــة وقوعهـــــا يعلمها الجميـــــع.

احد التناقضات الظاهرية لجمهورية جنوب افريقيا: ان الفصل العنصرى الذى يقسم المجتمع صار مشكلة تشغل عقول جميع سكان جنوب افريقيا بغض النظر عن لون بشرتهم، وتعتبر

الموضوع الاساسى فى حديث مختلف أوساط المجتمع. وصارت تعالج فى مقالات معظم الصحف والبحوث العلمية.

وتصادم الخرافات الايديولوجية مع الواقع فى لحظات حاسمة من حياة المجتمع، وهذا ما تعانيه حاليا جمهورية جنوب افريقيا، عادة ما يؤدى الى وقوع حالات تهور يائس قريبة الى فقد العقل، وتشاؤم غير مبنى على اساس، او على العكس من ذلك ـ الى انتعاش زائد عن اللزوم. والسقوط من المنصات الى هاوية الخرافات يخلق احيانا افكارا غير واقعية لتسوية الازمة.

والمتطرفون الافريقيون الجنوبيون اذ يستخدمون مثل هذه الحالة يصبون الزيت فى لهيب التناقضات ويهددون بالهرجلة وسفك الدم وينبئون بفشل جميع محاولات الوصول بالبلاد الى ساحل الحلول السلمية ويؤججون الشوفينية ويرفعون العلم العنصرى سواء الابيض ام الاسود. ويطرحون شعار: «اما كل شيء لنا، أو ليس لاحد».

وطيف التنبؤات بغد جنوب افريقيا واسع جدا. من اللون المعتم الرامز للحرب النووية وحتى اللون الصافى الشفاف المفعم بقرارات حل كل القضايا المتنازع عليها من دون اراقة قطرة دم واحدة. يكون من الملائم جمعها كلها على جانبى الحاجز العنصرى، الا أن التقسيم المعتاد الى «سود» و «بيض» فى مثل هذه الحالة يحتجم: فمثل هذه التوقعات تظهر فى كلا المجتمعين.

ورغم كون الاختلافات جادة فى بعض الحالات، فقد لوحظ مثلا خوف من المستقبل اكثر فى تقييمات «البيض» وشعور بحدوث كارثة. وهذا التشاؤم هو نتيجة تربية اجيال عديدة بروح عمى الالوان الاخلاقى الذى تظهر اثناءه مفاهيم مثل العقل والسعادة والاستقرار والاستقامة مقتصرة على البيض فقط، فى الوقت الذى الصقت مفاهيم كالفوضى والجنون والدمار بالسود وحدهم. وتحت تأثير الدعاية تحجرت فى مفاهيم البيض الشخصية السلبية للغاية للافريقى، وقابلياته ونواياه وكل ما هو اسود هو همجى معادى.

تجدر الاشارة الى ان التعامل مع البيض فى المجتمعات السوداء طيب وبرحابة صدر. وفى وعى الافارقة الابيض لا يعنى العنصرية وليس عدوا للاسود. وحتى فى فترات تسيب الرجعية والظلامية، اكد زعماء الغالبية انها تناضل لا ضد البيض، بل ضد نظام الظلم الذى يجعل ليس الاسود وحده عبدا وانما الابيض ايضا. لذلك يبقى شعار الافريقيين ولاكثر من ٣٠ عاما والمأخوذ من ميثاق الحرية الذى هو وثيقة برنامجية عامة للكونغرس الوطنى الافريقى المتخذ عام ١٩٥٥ — «جمهورية جنوب افريقيا لكل من يقطنها من سود وبيض».

ولهذا، كما يبدو، يلاحظ وسط الافارقة بالخلاف عن البيض وجود مجتمع ديمقراطى مستقر مولود وقبل كل شىء بروح نضال مرير مديد نقاه من الفصل العنصرى الكريه، وقومه بأسس دولة موحدة.

مع ذلك من الخطأ الاعتقاد بان جميع السود فى جنوب

افريقيا ودون استثناء يريدون التحولات. كلا، فالعديد عثر على موقعه الملائم فى النظام الحالى. وتنمو «طبقة متوسطة» من الافارقة الميسورين الذين لا يهتمون بالسياسة، وظهرت فى الضواحى السوداء للمدن مناطق كلها فيلات رائعة يسكنها افارقة يملكون الملايين. واستوعبت الصفوة الحاكمة فى البانتوستانات «المستقلة» كليا دور المالكين الكبار ولن تريد التخلى عنه. وفى الجيش والشرطة وهيئات الادارة المحلية يخدم افارقة هم جزء عضوى من الجهاز الادارى، يدعون بالجناح الايمن للمجتمع الاسود يفضلون حماية الظروف الحالية لرفاهيتهم. ومن هذا الوسط بالذات تشكلت فى الاستفتاء الذى جرى عام ١٩٨٦ وسط الرأى العام تلك العشرة بالمائة من الذين ليست لديهم اية اعتراضات ضد الحكومة القائمة.

والطرف الاخر للمجتمع الاسود، المتطرفون اليساريون الذين بأعمالهم ينسفون جهود القوى المحركة الرئيسية للحركة التحررية الرامية الى تحقيق تناسق مرن لوسائل النضال ضد الفصل العنصرى. ومن هناك ترانا نسمع اكثر الدعوات دويا الى الانتقام والى النهب والسلب والقتل واعتقال الرهائن. وهناك يحبون بشكل خاص الاقتصاص العرفى والتنكيل بكل من يخالفهم بالرأى.

ولاولئك الذين ينظرون الى مأساة جنوب افريقيا وكأنها مجرد تناقض بين الاسود والابيض نقول ان الكثير مما يجرى اليوم لا يدخل حدود الاطر المعتادة. ففى المسرح السياسى لجمهورية جنوب افريقيا هناك ممثلون اكثر بكثير مما يبدو للوهلة الاولى،

ثم ان ادوارهم عادة ما تخدع النظر. فمثلا، يعتبر العمال البيض الذين يشكلون حوالى ثلث الناخبين الافارقة البيض من اشد المدافعين عن سياسة الفصل العنصرى (الابارثيد). وعمال المناجـــــم السود يعارضون تشغيل عشرات الالوف المنحدرين من البلدان الافريقية المجاورة المستقلة. وفى ظروف نظام بوليسى صارم تجد العديد من الصحف فى نفسها الجرأة لتعلن لقرائها اخبارا صادقة عن الوضع فى البلاد وتنتقد سياسة الحكومة. واحيانا يخرق المحررون القانون بشكل مباشر رغم علمهم بان ذلك يعرضهم للسجن. وعصابات المأجوريـــن السود وبأمر من الشرطة تحطم مساكن ابناء جلدتها. والاطباء البيض يقدمون وبشكل سرى المساعدة الطبية للجرحى الافارقة. وفى جامعة ستيللينبوش التى تعتبر مهد الافارقة البيض فى جنوب افريقيا والتى خرجت عددا من قادة الحزب القومى يرفض اغلبية المدرسين فيها الفصل العنصرى.

والخاصية المميزة لجمهورية جنوب افريقيا الحالية هى اعادة تثمين القيم القديمة، والتحولات العاصفة الجارية بشكل اساسى تحت ضغط من الاسفل، وفى احيان كثيرة تحت ضغط من الاعلى.

وفى المجتمع الابيض يجرى قضاء سريع على القوالب القديمة. «فمتصلبو» الامس صاروا يجهرون بامور جريئة وسط معارضة البرلمان. والاصلاحيون «المنورون» ينتقلون الى معسكر المتطرفين اليمينيين. وما يلفت النظر، انه يجرى تعود سريع على مثل هذه التحولات والتغييرات، وكأنها طبيعية فى مثل تلك اللحظات

التاريخية الانعطافية فى حياة المجتمع. لذلك لم يستقبل بضجة الاعلان فى أواسط عام ١٩٨٧ عن مناقشة «بروديربوند» المجتمع شبه السرى للصفوة من الافارقة البيض طريقة جعل حكومة الاكثريـــــة تحت رئاسة رئيس اسود، ولـــم تترك صدى عميقا الاقاويل بصدد امكانية ترك بيتر دى لانغيه نفسه، رئيس «بروديربوند» الحزب القومى.

وقليل وسط الافارقة من يعتبر ان نظام الاقلية البيضاء باستطاعته الاستمرار حتى عام ٢٠٠٠ فقط. اما الشباب فى الضواحى الافريقية فمزاجه حازم ويعتقد بحلول النصر خلال ٥ سنوات او ١٠ على ابعد تقدير.

وحوالى نصف البيض، وهذا ما دل عليه استفتاء الرأى العام الذى جرى فى عامى ١٩٨٦، و ١٩٨٧، لا يثقون فى امكانية بقاء نظام الفصل العنصرى خلال السنوات العشر القريبة، على الرغم من ان الكثيرين وفى ذات الوقت يعتبرون سياسة الفصل العنصرى نظاما اكثر ملاءمة لجمهورية جنوب افريقيا، ولا يفقدون الامل فى العثور على شكل سياسى يبقى زمام امور الادارة فى ايديهم.

واكثر المتأنين صاروا يدرسون اللغات الافريقية. ومنذ عام ١٩٨٦ يبث التلفزيون دروسا بلغة زولو التى يتحدث بها حوالى ٦ ملايين افريقى. كتبت صحيفة «فاينينشل ميل» الصادرة فى جوهانسبرغ، كتبت بحسرة: «دراسة البيض للغة زولو معناه ان الامور سيئة بالفعل»، وصارت تتداول نكته جديدة تقول: المتفائل الابيض هو الذى يتعلم لغة زولو.

6*

والمتشائم الابيض هو الذى يتعلم لغة كوسا».

لنوضح بعض الشيء: يعتبرون غاتشو بوتيليزى زعيم الزولوبين شخصية سياسية معتدلة. اما نيلسون مانديلا المنحدر من الكوسا والذى يعتبر قائد النضال التحررى والمرمى فى السجن المؤبد فيسمونه «احمرا».

واستقطاب القوى المتنامى فى المجتمع الابيض يعكس مدى الازمة فى جمهورية جنوب افريقيا. فالدوائر العليا عاجزة عن الادارة بالاسلوب القديم، ووجدت نفسها فى مصيدة ايديولوجيتها الخاصة والتى لم تجد لنفسها مخرجا منها. وتذبذب الرئيس بوتا كشف عن شحة واضحة فى تجديد خطوط سياسية معينة ودقيقة. والكثير يعتبر بوتا قد استنفد جميع الوصفات التى كانت بحوزته ولم يبق شيئا منها للمستقبل.

وفى وقتنا الحالى، وحينما تنامت بحدة التبعية المتبادلة للدول والاحداث فى العالم يؤثر اى نزاع ومهما كان بعيدا على «العافية» السياسية للكرة الارضية برمتها. ناهيك عن ذلك الجارى فى جنوب افريقيا: فبصماته على سير الامور الدولية تصير مؤثرة اكثر فاكثر.

واضح للعيان ان جميع شعوب جنوب افريقيا والعالم كله لها مصلحة فى حلول عملية القضاء على الفصل العنصرى من دون سفك اضافى للدماء، وذلك كى يخلق مجتمع متنوع العناصر وديمقراطى لا على الانقاض، ولكى يظهر المشاركون الاساسيون فى مأساة افريقيا الجنوبية شعورا بالمسؤولية على مصائر بلدانها والمنطقة كلها.

ومثل هذا الشعور بالمسؤولية تبديه لحد الان جهة واحدة متمثلة فى المناضلين ضد الفصل العنصرى. ثم ان قادة دول «المواجهة» والكونغرس الوطنى الافريقى لجنوب افريقيا، والمنظمة الشعبية لجنوب غرب افريقيا لم يرفضوا ابدا القرارات السياسية. بل على العكس من ذلك نراهم يقدمون على الدوام اقتراحات رامية الى خلق ظروف مواتية لاجراء حوار لتحقيق قرار عادل لكل مجمع المشاكل الشاخصة. لكنه يجب ان يكون حوارا بين شركاء متكافئين خاليا من العدوان والتهديد والاعمال التخريبية والقسر. ومقدمة لذلك يجب ان يتحقق الالغاء دون قيد او شرط لقوانين الفصل العنصرى، ولحالة الطوارئ، واطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين فى جمهورية جنوب افريقيا والسماح لعمل كل الاحزاب والمنظمات السياسية الممنوعة، ومنح الاستقلال لناميبيا على الاسس التى طرحتها الامم المتحدة، وتخلى جمهورية جنوب افريقيا عن سياستها العدوانية فى المنطقة.

وهذه المطالب الواضحة والعادلة تماما يرفضها النظام الابيض كما هو الحال سابقا. وزعماء «القبيلة البيضاء» لا يزالوا عاجزين عن فهم حتمية التحولات الجذرية، ويفتشون بشراهة عن وسائل سحرية لجعل الفصل العنصرى ملائما للواقع الجديد، وخلق صورة لاصلاحات من دون تغيير الجوهر. لقد اعلن بوتا رئيس الجمهورية بعد الانتخابات الى المجلس الابيض فى البرلمان فى ايار (مايو) ١٩٨٧ بانه لديه الان وثيقة انتخابية لمواصلة سياسة «التحولات التدريجية». الا

ان الاصلاحات النصفية لا يحتاجها احد، لا السود ولا البيض. فهى تزرع تخيلات عقيمة، وتعمق الكراهية تجاه كلا قطبى الحياة السياسية لجنوب افريقيا. و بخاصة حينما تجرى على خلفية الارهاب المتواصل داخل البلاد والاعمال العدوانية ضد دول «المواجهة».

اضافة الى ذلك سنبسط الامور اذا ما حاولنا التأكيد على ان حكومة جمهورية جنوب افريقيا فقدت كليا قدرتها على الشعور بروح العصر. فهذا الشعور بالذات قد نما لديها خلال السنوات العشر الاخيرة. لكن المصيبة تكمن فى ان ذلك الشعور ظهر متأخرا جدا. فالاقلية حكمت لفترة متواصلة ولم تكن حتى تفكر بالتخلى عن جزء ضئيل من الامتيازات التى تمتعت بها، اما نضال الاكثرية فلم يكن يشكل تهديدا حقيقيا للدوائر الحاكمة ولا حتى فى اية فترة سبقت ذلك. لكن الدور قد تغير اليوم، حيث تلزم سلطة المالكين فى جمهورية جنوب افريقيا باتخاذ دفاع دائرى اليوم، فهؤلاء يخوضون نضالا من اجل البقاء.

تشتت فى «القبيلة البيضاء»

تعتبر «الحملة العظمى» عام ١٨٣٦ التى هى بداية انطلاق البوريين من محافظة الكابا باتجاه الشمال والشمال الشرقى هربا من الانجليز الذين احتلوا فى نهاية القرن الثامن عشر الاراضى التى كان يسكنها الافارقة البيض، تعتبر علامة حدود ليس فى تاريخ جنوب افريقيا وحده، بل وفى وعى الافارقة البيض.

وفى تلك السنوات، كما هو الحال اليوم، احاط الاعداء بهم من جميع الجهات. واذا كان الاعداء اولئك قد روضوا القبائل الافريقية بسهولة بالغة، فأن الانجليز الذين كانوا اقوى لم يحتلوا اراضيهم وحسب، بل وادخلوا عليهم لغتهم وثقافتهم.

والمقاومة السلبية للبوريين لم تتكلل بالنجاح، وفى عام ١٨٩٩ اندلعت نيران حرب استمرت ٣ سنوات وانتهت بانتصار بريطانيا. لقد لقى حتفه سدس الافارقة البيض، وذاق الموت الزؤام جوعا فى معسكرات اعتقال الجنرال كيتشينير ٢٦ ألف امرأة وطفل.

الا ان الانجليز المنتصرين لم يحققوا الهدف الاساسى

الذى كمن فى تفتيت وحدة الشعب الافريقى وتقسيمه الى اجزاء صغيرة وحرمانه من كل فرصة لبعث وحدته من جديد وحتى فى المستقبل البعيد.

وبدا الافارقة البيض للعديد من الناس فى ذلك الوقت مدافعون شجعان عن حريتهم وشعبا ابيا لا يتهاون مع الذل. كانت تلك اللحظة قصيرة ووحيدة فى تاريخ جنوب افريقيا حينما تعاطف العالم كله معها. الا ان ذلك التعاطف سرعان ما تحول الى نفور وكراهية. وكان المذنبون فى ذلك الافارقة البيض انفسهم: فبعد الحرب الانجليزية البورية واصلوا حربهم ليس فقط ضد الانجليز، بل وضد الافريقيين وضد العالم كله. ومثل تلك الحرب اعتبروها هم ويعتبرونها اليوم الوسيلة الرئيسية لحماية سيطرتهم.

ولاجل هذا الهدف لا تهاجم بريتوريا جيرانها وتبعث شرطتها وجنودها المدججين بالسلاح الى المعسكرات (غيتو) التى يسكنها السود وحسب بل وتقوم بتحسين ظروف عمل العمال السود وترفع بعض الحواجز العنصرية فى الحقل الاجتماعى. والتوتر المتواصل الذى سببه الخوف من الهجوم المباغت عليهم من الخارج وانتفاضة المسحوقين والارهاب المسلح من جانب المتطرفين اليمينيين والعقوبات الاقتصادية الدولية وفقدان تأييد اى من الدول الغربية وتعزز الحركة المعادية للعنصرية فى العالم اجمع — كل ذلك يترك بصماته على السلوك السياسى للحكومة وعلى كل نمط حياة المجتمع الابيض هناك.

وزعماء «القبيلة البيضاء» فضلوا دائما الابقاء على الجروح

القديمة مكشوفة لكى يبقى الافريقى الابيض مستعدا على الدوام لدخول حرب جديدة. فقد اعدوه منذ نعومة اظفاره للعزلة وألهموه بشكل متواصل ان العدو يطوقه ليس فى بلاده التى يعيش فيها وحسب، بل وفى كل مكان. وفى هذه القلعة المطوقة والمحاصرة والتى تبدو للعديد من الافارقة البيض وحتى الان صعبة المنال انخلقت خرافات بصدد «الشعب المختار» واخرى بصدد استحالة الانتصار على الانسان الابيض. وفى مثل هذه الظروف بالذات سقى التعصب العنصرى الافريقى الابيض الذى بسببه ارث العالم واحدا من اكثر النزاعات حدة. والافارقة البيض مدينون لزعمائهم حماة نقاوة الايديولوجية العنصرية بالذات فى تحول جمهورية جنوب افريقيا خلال السنوات العشر الاخيرة الى دولة منبوذة من قبل المجتمع الدولى.

والافريقى الابيض العادى ليس فقط عودوه على فعل ما لم يرغب فيه، او ما يبدو له مشينا. فمنذ سنوات الطفولة سار تطوره الروحى فى طريق مشوه. فنفسيته تعرضت لمراقبة دائمة، ثم ان قدرته الاخلاقية والروحية ومنذ ولادته ترعرعت فى مضجع بروكروستوس لمذهب التحديد السابق للعناصر. فالتعالى على الشعوب الاخرى «الناقصة»، ولا مبالاته تجاه معاناتها، وعدم رغبته فى احترام قيمها الثقافية، كان يجب ان يكون، وقد صار من الخصائص المكملة للافريقى الابيض «الحقيقى».

والافريقى الابيض السامى (السوبر) يجب ان يعتمد على غرائز اهمها غريزة الحماية الذاتية. فالاعداء فى كل مكان، وعليه ان يكون يقظا وان ينزل الضربة الاولى.

وقادة الحزب القومي المتعصب الحاكم وضعوا برنامج اعداد الاجيال القادمة من الافارقة البيض لتسنم دور الافريقى الابيض السامى (السوبر)، حيث هو وحده مالك افريقيا الجنوبية. وحتى الانجليز، ناهيك عن الملونين او السود، لم يستطيعوا اشغال ذلك المركز هناك.

وكان على الافريقى الابيض «الجديد» ان يستوعب معادلة بسيطة من الحقائق: الانسان الابيض لا يمتاز فقط عن الاخرين بلون بشرته. فهو متحضر بشكل لا يمكن مقارنته معهم لذلك فهو الذى يحتل المركز القيادى. لنأتى بمثال من كتاب مدرسى: البيض اطباء ومحامون والاسيويون تجار ونادلون. اما السود فزبالون وعمال مناجم.

والافارقة البيض يسمون بفخر انفسهم «القبيلة البيضاء»، ويعنون بذلك اكثر مما يبدو للوهلة الاولى. وخارج حدود افريقيا الجنوبية عادة ما يستخدمون هذه التسمية بشيء من السخرية: الا انها جادة تماما للافريقى الابيض: فليس له بيت آخر عدا الحدود الجنوبية لافريقيا، وكل شعوره وخبرته وذاكرته وشخصيته ونمط حياته يبدأ وينتهى من الارض الافريقية. والبوريون وهم يدافعون عن حقهم فى تسمية انفسهم افريقيين ينكرون هذا الحق على الشعوب الاخرى التى تقطن افريقيا الجنوبية ومنذ فترة اقدم من بداية «عصر الانسان الابيض». ما الذى لم تستخدمه السلطة فى سبيل عدم تسمية الافارقة الجنوبيين افارقة فقد اطلقوا لفترة طويلة عليهم اسم «السكان الاصليين» و «الكافيريين» و «غير البيض» ومن ثم ابتكروا

اصطلاح «بانتو». وهذه التسمية لا معنى لها لانها تعنى حين ترجمتها الى اللغات الاخرى «البشر». وتعبير «شعوب بانتو» السائد فى جمهورية جنوب افريقيا يعكس خطل النظام نفسه والذى ظهرت هذه التسمية ابانه.

والافارقة البيض احتلوا المقدمة فى مجال المعارف: فهم اول من اجرى عملية زرع القلب فى العالم، وهم الذين ابتكروا وسائل جديدة لتركيز اليورانيوم، ودخلوا فى عداد اول عشر دول فى انتاج السلاح، ثم ان عشرات ناطحات السحاب ثقبت سماء جنوب افريقيا، والشوارع مكتظة بالسيارات التى يجرى تجميعها فى مصانعها هناك. اما بخصوص الاخلاق فعقرب الساعة هنا يدور الى الوراء — الى عصر «الحملة العظيمة».

ومن الناحية الاخلاقية تخلفت «القبيلة البيضاء» كثيرا عن اولئك الذين تظلمهم.

والافارقة البيض فى جوهر الامر شعب بائس تماما رموه الى هاوية الفصل العنصرى، والزموه على الاعتقاد والثقة بان القسوة هى الخير، والظلم هو العدالة، ومعاناة الاسود هى منفعة للابيض.

مرة قال مارتن لوثر كينغ: «فى هذا الجيل علينا ان نأسف لا على الاعمال الخسيسة التى يرتكبها الاشرار، بقدر ما نأسف على الصمت المقرف من جانب الناس الطيبين».

وفلسفة البقاء على قيد الحياة ساعدت على ظهور اكثرية سلبية راقبت سير تطور الاحداث بصمت لا يخلو من القلق. وهذه الفئة السلبية تستفيد من كل ثمار سياسة الفصل العنصرى وتخلت منذ زمن بعيد عن واعز الضمير، وتأمل بان الحكومة

ستتوفق بالعثور على مخرج من المأزق المخيم على رؤوسها وستحافظ على بقاء الامتيازات القديمة التى تتمتع بها. على كل نراها تحاول اقناع نفسها بان السلطات لن تخذلها. ومثل هؤلاء البيض يصوتون دوما للنهج الرسمى ولم يتخذوا اية قرارات من شأنها وبأقل قدر التشكيك فى ولائهم للنظام. ووسط هؤلاء بالذات يخافون جدا من العقوبات الدولية التى كما يفهمونها انفسهم جيدا ستنعكس على دخولهم ونمط حياتهم.

وظهور مثل هذه الفئة هو نتيجة عملية انتقاء دامت عشر سنوات اجراها ايديولوجيو العنصرية. ونظام التعليم رام لتربية شعور الافضلية تجاه الشعوب والقوميات الاخرى لدى المدافعين عن الفصل العنصرى فى المستقبل، والكراهية «لكل ظاهرة من ظواهر الشيوعية». فالابيض وبخاصة الافريقى الابيض يجب ان يتمتع بـ «عافية» سياسية كبيرة من اجل تأييد اى اجراء سياسى للحكومة. وتأييد وحدة «القبيلة البيضاء» يتم عن طريق مراقبة معظم الكبار والصغار (وهذا مطبق بشكل عام على الافارقة البيض) داخل اطر مختلف المنظمات الايديولوجية والثقافية لاى نشاط معاد. ومثل هذا الجو «القبلى» يعتبر وسطا يغذى ليس فقط السلبية وحدها، وانما النزعات اليمينية المتطرفة، ويساعد على نمو، وفى القرى بشكل خاص، الفرق والمجموعات الموالية للفاشية، والتى قد شاركت فى الارهاب المسلح سواء ضد المناضلين الافارقة من اجل الحرية، ام ضد البيض من ذوى الاتجاه الليبرالى.

وقسم صغير من القبيلة البيضاء وقبل كل شيء الشباب والمثقفون استطاع الابتعاد عن قوالب الدعاية الرسمية واقتنع بان المخرج من الحلقة المفرغة التى دفع الفصل العنصرى جمهورية جنوب افريقيا اليها واحد وهو الاطاحة بنظام الجور. وفسق النظام العنصرى المفضوح يمزق قلب ذلك النفر من الناس، وبذلك يكمن وميض الامل لهذه البلاد، حيث الاكثرية البيض تضع على كفة الميزان الاخرى رفاهيتها القائمة على الفسق والجور والمجون. وكون العقدين الاخيرين من الزمن قد بديا راسخين وخالدين، لكن جوا من النتانة والعفونة خيم عليهما.

سفك الكثير من الدم الذى ثبت «اساس» النظام.

اشار دوستويفسكى فى احد اعماله الاخيرة «صلد ذلك الذى يرهق الدم تحته، لكن الاوغاد نسوا ان الصلد ليس من يرهق الدم، وانما مـــن يرهق دمـــه. وهذا قانون الـــدم على الارض».

الشك والريبة خيما على نفسية حتى بعض الافارقة البيض العقائديين الذين فهموا ان نظام العنصرية الثابت لا يتلاءم وظروف العالم المعاصر، ويتعذر الدفاع عنه لفترة طويلة. رواسب الماضى للفصل العنصرى تتكشف اكثر فاكثر امام ضيقى الافق وتطرح امامهم عددا من الامور: ما العمل؟ الهرب؟ تكرار عمل ما قام به بعض الالوف الذين باعوا ممتلكاتهم وهاجروا الى استراليا وكندا والارجنتين وحتى الى زيمبابوا. ام البقاء حتى النهاية؟ وفى هذه الحالة يكون من الواجب اما الاستعداد

للحرب واما الاتفاق مع الافارقة. وكلا الرأيان يخيفانهم.

عادة ما يهاجر الناطقون بالانجليزية من البيض. والافارقة البيض يقطبون جبينهم باحتقار حين قراءتهم اعلانات عن الخدمات القانونية التي تقدم للمهاجرين. ويعاد للذاكرة ومن جديد الزعل على الانجليز.

ويؤكد «المتصلبون» على انه لا تهمهم هجرة عدة آلاف من الانجليز فالمهاجرون هم الجبناء اما الافارقة البيض فباقون. كنا ومنذ ٣٠٠ سنة خلت نعلم اننا سنقاتل وحان وقت القتال. وفي اوساط الافارقة البيض يقل من يوم لاخر عدد المستعدين للموت في سبيل الفصل العنصري. وفي سير استفتاء الرأي العام الذي جرى في كانون اول (ديسمبر) ١٩٨٥، اعلن ٣٪ من الافارقة البيض (حوالي ١٠٠ الف شخص) انه خلال ٥ سنوات سيهجرون بلادهم. وقبل شهر من تلك الفترة المحددة اتضح ان كل عاشر من البيض يفكر بالهرب قبل حلول عام ١٩٩٠، وعدد اولئك حوالي نصف مليون شخص.

وهروب البيض لا يعني فقط ضربة نفسية بالفصل العنصري وحسب، بل وخسارة اقتصادية فادحة، لان الهاربين اختصاصيون ما بين اطباء ومهندسين ومعلمين ورجال اعمال. وفي عام ١٩٨٦ هاجر كل شهر حوالي ١١٠٠ انسان، اى بزيادة ٣٠٪ عما كان عليه عام ١٩٨٥. وعدد المهاجرين الى هذه البلاد قل بشكل ملحوظ. وجمهورية جنوب افريقيا تفقد جاذبيتها كبلاد المداخيل العالية والنفقات الواطئة.

وليس كل الهاربين يختارون الهجرة. العديد منهم

يأخذون على اجازة طويلة الاجل، او يعملون في الخارج، لذلك فأن عدد المهاجرين الحقيقي يزيد في هذه الحالة بمرتين او مرتين ونصف عما يعلن رسميا.

الا ان بريتوريا يقلقها بشكل اكثر وليس اقل حركة الاحتجاج المتعاظمة وسط السكان البيض، وبلغ هذا القمة عام ١٩٨٥ — ١٩٨٧ (وفق معطيات البيض).

ومنظمات البيض يدخل في تعدادها عدة آلاف من الاعضاء الذين يقاومون الفصل العنصري علانية مثل منظمة «الشالات السود» و «حملة الغاء الخدمة العسكرية الالزامية»، و «الائتلاف من اجل حق الاطلاع على كل شيء» ومنظمة «النساء من اجل السلام»، و «لجنة تأييد آباء وامهات المعتقلين» و... الخ .. وفي تموز (يوليو) ١٩٨٧ اقام عدد من هذه المنظمات ائتلافا اسموه «لقاء الحريات الخمس». وعلى الرغم من تضاربها وعدم انسجامها السياسي والاجتماعي تعكس هذه المنظمات نزعات جديدة في المجتمع كالتناقض المتعمق بين الدوائر العليا البيضاء وبين الدوائر السفلى، وعدم الرغبة المتنامية في اتباع عقائد جامدة للحزب القومي المتعصب.

والسلطات بينت رأسا ان لون البشرة لا يحمي الفرد حينما يدور الحديث عن انقاذ النظام. فالمطاردات والاعتقالات في احياء البيض صارت امرا اعتياديا.

بيد ان صوت العقلاء من البيض لا يزال ضعيفا بعد. والكلمة الطولى في السياسة لاتزال لدى من يعتبر ان على افريقيا الجنوبية ان تبقى «بيضاء».

بوتا ضد جمهورية جنوب افريقيا

يعتبر بيتر ويللم بوتا زعيم «القبيلة البيضاء» فى المعركة من اجل بقاء النظام. وهو فى الوقت ذاته ثامن قائد للاقلية الحاكمة يترأس جهاز الدولة منذ عشر سنوات. والصحفيون يسمونه بالحرفين الاولين اللذين يتصدران اسمه واسم أبيه، بى دبليو. ويحمل فى جمعية «بروديربوند» شبه السرية رقم ٤٤٨٧. واليمينيون المتطرفون يسمونه «الاحمر». ويعجبه هو نفسه التحدث عن نفسه وكأنه مصلح ومبرمج وليبرالى وبانى جنوب افريقيا الجديدة. وخارج المجتمع الابيض فى جمهورية جنوب افريقيا يعتبرونه عنصريا مكلوبا. وقربت نهاية نشاطه السياسي. وعبثا تجد من يسمى هذه النهاية سعيدة. لقد وصل التوتر السياسى فى افريقيا الجنوبية قمته، والاقتصاد يمر بأزمة، وازدادت عزلتها الدولية ويتعمق الانشقاق داخل المجتمع الابيض. وصار بوتا فى وضع اللاعب الذى لم يعد يحالفه الحظ بعد. ولا يزال سهم لعبة «الروليت» يمر جنب الرقم الذى راهن عليه. واصحاب مائدة القمار يتطلعون الى ساعاتهم. فقد ازف وقت انتهاء اللعبة. وعلى الجميع التفرق. فاللعبة لا تعاد بعد الان...

قبل ٥٠ سنة، وحينما بدأ بوتا لتوه نشاطه السياسى لم يكن ليتوقع احد ان هذا الانسان سيصبح رئيس وزراء فى يوم ما. وانفرد عن اقرانه بتكبره الزائد عن اللزوم وتصرفاته المتهورة. تذكر احد معلميه فى المدرسة يقول «لا يمكننى القول ان بوتا امتاز اثناء دراسته بقدرات معينة».

نراه قد تذوق السياسة منذ طفولته فوالدته هيندرينـا دى فيت من اقارب جنرال بورى معروف، وحتى وفاتها لم تغفر للانجليز هلاك اسرتها، وتعصبت لقومية الافارقة البيض المعادية. وخلال الحرب الانجليزية البورية قتل ولداها الاثنان فى احدى معسكرات اعتقال الجنـــــرال الانجليزى كيتشينير، وزوجها الاول توفى حال عودته من معسكر اسرى الحـــــرب فى سيلان. وفـــــى عام ١٩١٥ تزوجت للمرة الثانية من احد افراد الانصار وهو محارب قديم كان يكره الانجليز شأنه شأن قدوته الجنرال هيرتسوك الذى اسس حزبا قوميا عام ١٩١٤.

واتضح ان بيتر بوتا متعصبا قوميا اكثر مما توقع منـــه والداه. ففى عام ١٩٣٦ ترك الجامعة مفضلا عليها العمل فى الفرع الريفى التابع للحزب القومى الذى كان فى ذلك الوقت قد اعد قاعدة للاستيلاء على السلطة. وقدروه وقتذاك مباشرة لقابلياته التنظيمية وشدته تجاه الامور: فعندما وصل الامر لتشابك الايدى مع الخصوم من الحزب الموحد، كان بوتا على الدوام فى وسط تلك المشادات. ووقع فى تلك الفترة حدث لا يحبذ هو تذكره. ففى بداية الحرب العالمية الثانية

تعاطف بوتا مع النازيين واشترك في انشاء فرع لمنظمة فاشيي جنوب افريقيا «اوسيفابراندفاغ» في محافظة الكاب.

وفي عام ١٩٤٦ تم تقليد بوتا جراء اخلاصه لقضيـــة الافارقة البيض، ورشح وهو عضو حزب عادى الى منصب مرشح للحزب القومي في البرلمان. وفي انتخابات عام ١٩٤٨ فاز القوميون ومنذ ذلك الحين وبوتا نائب ثابت لاحد دوائر محافظة الكاب.

كان طريقه للسلطة طويلا، لكن بوتا علم بشكل جيد ما كان يرنو الى تحقيقه، واعد نفسه للدور الاول.

لماذا وثقوا به هو بالذات لقيادة البلاد؟ فمن المعلوم ان نسبة صعوده الى دست الحكم كانت ضئيلة. قبل كل شيء لان بوتا كان من ناخية وجهات نظره السياسية قريبا الى المركز. ثم ان المرشح لرئاسة الوزارة يجب ان يكون على ضوء التقاليد السائدة وقتذاك ممثلا للجناح اليميني. اضافة الى ذلك لدى بوتا نقص آخر، فهو لا يحمل شهادة التعليم العالي. عدا ذلك صار انفعاله السريع وكرهه لاراء الغرباء على لسان الجميع. فزملاؤه في وزارة الدفاع يسمونه «قاذفة قنابل» و «بيتر الرامي». اما ايلين سوزمان الساخرة والتي تعتبر الصوت الوحيد والدائم للمعارضة في البرلمان فقد قالت مرة «لو كان بوتا امرأة لظهر في الاجتماع ممتطيا المكنسة».

يؤكدون ان الحظ ساعده مرة من المرات: في عام ١٩٧٧ اساءت فضيحة كبيرة لها علاقة بالفساد في عدد من الوزارات،

اساءت الى كونى ميولدر وزير الاعلام الذى يعتبر اكثر الشخصيات يمينية فى تلك اللحظة واكثر المرشحين فوزا باحتلال مركز ب. ج. فورستر رئيس الوزراء وقتئذ. واضطر فورستر الى الاحالة على التقاعد وصار منصبه شاغرا. وفجأة اضحى بوتا اكثر المرشحين ملاءمة لذلك المنصب.

لكن السبب الرئيسى لم يكن على الاكثر يكمن فى ذلك. فمنذ اواسط السبعينات بدأت تظهر فتوق نظام الفصل العنصرى الذى غدت دعاماته تتصدع.

وصارت الانتفاضة فى سويتا عام ١٩٧٦ والتى انتهت برمى ٦٠٠ افريقى بالرصاص حتى الموت مقدمة لاضطرابات شعبية متواصلة شملت كل البلاد تقريبا، وصلت الى قمتها اعوام ١٩٨٤ — ١٩٨٧. وقام فى المنطقة الاستوائية لجنوب افريقيا وضع سياسى جديد وذلك بسبب انهيار الاستعمار البرتغالى وظهور حزام من الدول الافريقية المستقلة حول جمهورية جنوب افريقيا التحقت مباشرة فى النضال ضد نظام الفصل العنصرى (الابارثيد).

وظهرت ازمة سياسة الفصل العنصرى فى توزيع القوى السياسية المتغير داخل الطبقة الحاكمة، والذى صار انهيار الوحدة القديمة للافارقة البيض احد علائمه الواضحة. والمزارعون الذين يلعبون دورا محددا فى الحياة السياسية فقدوا تأثيرهم بعد ان تنازلوا عنه لبرجوازية الافارقة البيض الصغيرة والكبيرة والمتنامية باندفاع. ثم انهار الاتحاد التقليدى بين جميع افراد مجتمع الافارقة البيض والذى ادى الى وصول الحزب

5 *

القومى المستنير بالفصل العنصرى الى السلطة عام ١٩٤٨.

والرأسمالية فى جنوب افريقيا تعرضت للتشهير من جانب العنصرية. فتشابه مصالح الدولة مع القطاع الخاص كان واضحا لدرجة جعلهما الاثنان هدفا للنضال التحررى الوطنى المتعزز. هذا من جهة اما من الجهة الاخرى فقد اضحت الرأسمالية فى جمهورية جنوب افريقيا تلفظ انفاسها الاخيرة فى اصفاد الفصل العنصرى. ودعا التطور المسرع للصناعة وظهور فروع علمية جديدة، الى اقامة سوق مستقرة لضمان القوة العاملة المؤهلة. كان النقص فى الايدى البيضاء واضحا. وكان نظام الفصل العنصرى قادرا على تجهيز اياد عاملة من بين المهاجرين او من بين اولئك الذين تنقصهم الكفاءة والتأهيل. والفصل العنصرى لم يحمى البيض من «هجوم البرابرة»، بل على العكس من ذلك، عمل على تأجيج الكراهية، والعزم على النضال فى القطب الاسود.

كان من الضرورى فتح الصمامات، ومنح الامكانيات لفئات معينة من الافارقة للتقرب من الامور الاقتصادية واطعامهم. وبكلمة اخرى كان من الضرورى اتخاذ اجراءات سريعة لتعزيز وتوسيع الدعامة الاجتماعية العنصرية للنظام، ومنح جمهورية جنوب افريقيا شكل دولة رأسمالية «طبيعية» لا تنطبق الخلافات الطبقية فيها مع العنصرية بهذا الشكل المفضوح.

وهكذا، ولاجل البقاء ومقاومة الضغط المتنامى من جانب الاغلبية الافريقية، احتيج الى التضحية ببعض المبادئ

الايديولوجية، وادخال بعض التعديلات فى نظام الفصل العنصرى. ولذلك تطلب الامر يدا قوية جديدة، لذا قررت البرجوازية الكبيرة للافارقة البيض ان بوتا هو افضل من يقوم بذلك الدور. وكان لحين ذلك الوقت قد حصل على سمعة ثابتة كوزير استطاع السير بالصناعة الحربية فى الطريق المعاصر، واعادة بناء القوات المسلحة ولحد كبير يعود الفضل لبوتا فى دخول جمهورية جنوب افريقيا فى عداد اول عشر دول منتجة للسلاح فى العالم. عدا ذلك استطاع وخلال فترة زمنية وجيزة الحصول على تأييد الاغلبية فى الحكومة والحزب.

وامل الرأسمال الاحتكارى فى ان هذا السياسى المحنك باستطاعته ترويض النظام القائم ليتأقلم ويتلون بلون الوضع السياسى المتغير، وتجنب حدوث انفجار ثورى.

وطلع بوتا بنهج جديد مبنى على فهم حقيقة كون انظمة الاستقلال والقهر القديمة لا تنفع فى الظروف الراهنة. وكما عبر هو نفسه يكمن جوهر سياسته فى المفهوم التالى: «اما نتكيف واما نهلك».

لقد نبش بوتا «عش النمل الابيض»، فقد حركت سياسته المجتمع الابيض المتقوقع فى الفصل العنصرى. وفى الفترة الاولى بدا وكأنه ليبرالى. وكان ليبراليا لدرجة معينة، فقد صار اول رئيس لجمهورية جنوب افريقيا جرأ على تغيير بعض الامور فى سياسة الفصل العنصرى، واقتراح فعل شىء اكثر من مجرد تقوية المعسكر الابيض المطوق.

وفى عام ١٩٧٩ سمح بوتا بنشاط النقابات الافريقية. وظهرت وجوه سوداء فى صفوف الجيش، وغدا افراد الشرطة السود يفرقون المظاهرات. وسمحوا للسود المتمكنين ماديا بتأجير اراض فى الضواحى. والغى المنع العنصرى على العديد من المهن والحرف، وتوسعت النفقات على تعليم الافارقة السود وسمح بالزواج المختلط، والغيت البطاقات الخاصة بالسكان السود. والفارق فى الاجر بين البيض والسود ورغم بقائه هائلا صار يتقلص قليلا. وعزموا على اقامة طبقة متوسطة من السود مدينة بحالتها للنظام وتعزز البرجوازية الافريقية، وغير مهتمة بالتغييرات الثورية.

ليس من العدالة الشك فى زعيم الدولة العنصرية برغبته فى القضاء على الفصل العنصرى. فقد رد مرة على مثل هذا الاتهام بقوله: «ارجوكم لا تعتبروننى منتحرا». فنظرته الى مستقبل جمهورية جنوب افريقيا خلافا عن انطباعات من يدخل التفاصيل، اتفقت تماما مع الامر الذى يعتبر هناك اساسيا: على الاقلية البيضاء ان تسيطر كليا على الامور السياسية والاقتصادية. لذلك عمل بوتا كل ما فى وسعه لكى تعود عملية التغيير هناك على البيض بنفس النتيجة، كفقدان العظاءة لذنبها فى لحظة الخطر.

فى البداية سارت الامور سليمة. فالخطوات الاولى التى قام بها بوتا ارضت رجال الاعمال، وخلقت امكانية اضعاف المقاطعة الدولية لجنوب افريقيا. وتحدثت كل من الولايات المتحدة وانجلترة شريكتا جنوب افريقيا عن امكانيات انتقال

الفصل العنصرى دون سفك دماء الى جانب مفهوم وسياسة الديمقراطية الغربية.

بيد ان النقص الكبير فى استراتيجية بوتا كمن فى جهلها بالخبرة التاريخية. من المعلوم جيدا ان انظمة مثل نظام جنوب افريقيا تتعرض نفسها لخطر كبير حينما تحاول التأقلم لاوضاع جديدة، وتعويض ما فقدته من وقت والقيام باصلاحات جزئية دون تغيير الامر الرئيسي. وبارخائهم «الصمولة» يخاطرون بالاستقرار القائم على الفزع والقسر، ويجرون للمشاركة في شؤون الحياة قوى جديدة من المعارضة سواء يمينية ام يسارية. كانت ملزمة على فتح القرح الاجتماعية المقنعة بشكل جيد، والاعتراف بخطأ القرارات السياسيــة السابقة.

لذلك، حدث مباشرة ما يجب ان يحدث: صارت سياسة بوتا التى كانت نصفية الحلول من جهة تصطدم مع مصالح الافارقة البيض الاصليين، ومن جهة اخرى، سرعت فى جر معظم الافارقة للتدخل فى السياسة.

والجناح اليمينى للافارقة البيض هب ضد جميع اشكال التغيير. فالجهاز البيروقراطى الضخم الذى يخدم سياسة الفصل العنصرى تقبل الاصلاحات كمحاولة لنسف سلطته والقضاء على امتيازاته. واذا ما اخذنا بالحسبان ان قرابة ٤٠ ٪ من جميع الافارقة البيض القادرين على العمل (وحوالى ثلث كل البيض) يعملون فى الدوائر الحكومية، واذا ما اضفنا لهم جزءا من البرجوازية الصغيرة والارستقراطية البيضاء

العاملة والمزارعين، لاستطعنا تصور قدرة آساد المعارضة اليمينية المتطرفة.

ومن وجهة نظر الافريقي الابيض «المجرب» بدت اعمال بوتا خرقا للمبادئ ونسفا للعادات المتأصلة. فما اعتقده الافارقة ترحما مذلا، اعتبره الافارقة البيض خطوة ثورية.

وعدم الرضا داخل المجتمع الابيض ارفد بنهوض لا نظير له لانتفاضات الافارقة، وظهور تآلف هائل للقوى المناضلة ضد الفصل العنصرى. وخلال فترة وجيزة اضحى اقتصاد جمهورية جنوب افريقيا فى ازمة عميقة من التضخم والبطالة وبضمنها وسط البيض ايضا طغت على كل المستويات السابقة. وتخلفت وتائر النمو الاقتصادى بمرتين ونصف عن وتائر الزيادة فى السكان. ومباشرة بعد تقليص سيل التمويلات الاجنبية والتى بدونها لا يستطيع اقتصاد جنوب افريقيا التطور بشكل طبيعى، بدأ تسرب رأس المال مـــــن جمهورية جنوب افريقيا.

واصلاحات بوتا ولدت العديد من الظواهر الملحقة التى احبطت الحسابات الاولية. فاضافة الى ارادة اصحاب النهج الجديـــــد سحبت الاصلاحات ورغم تنظيمها الجيد الدعائم من تحت اساس صـــــرح الفصل العنصـــــرى. وتبين ان وصايا بوتا بصدد «التكيف» عقيمة اذا ما ابقى على الوصفات القديمة. فالاصلاحات وحال ولادتها تغدو حافزا لانتفاضات جديدة من جانب المسحوقين المطالبين بحرية حقيقية.

فى مقالة «اقتراب النهاية» التى كتبها لينين عام ١٩٠٥

توجد الكلمات التالية: «... نحتاج ليس الى الاعتراف بالحرية، بل حرية حقيقية. نحتاج ليس الى وريقة توعدنا بحقوق قانونية لممثلي الشعب. نحتاج الى سلطة شعبية حقيقية. وكلما زاد اقترابنا منها، كلما شعرنا اكثر بافتقادها، وكلما زاد تغرير بيانات القيصرية، كلما يستحيل بقاء سلطتها».

الكلمات المذكورة بالغة الدقة بالنسبة لتفهم اللحظة التاريخية الحالية في جنوب افريقيا.

... بدلة سوداء مخططة، وباقة ورد صغيرة بيضاء صفراء في عروة السترة اليسرى، ورباط عنق غامق اللون بنقاط بيضاء. واطار ذهبي رفيـــع يحيط بزجاجات النظـــارات. اليد اليسرى مرفوعة للتحية، وابتسامة رسمية عريضة تملأ وجه الفائز. هكذا كان مظهر بوتا امام الجمهرة: النهادرة بعد اعلان نتائج الانتخابات في البرلمان يوم ٦ ايار (مايو) ١٩٨٧، وحيث تحدث فيه من موقع يميني مفضوح. وقبل يوم واحد من ذلك: هو برفقة زوجته يضع ورقته الانتخابية في صندوق التصويت وينتخب نفسه. ابتسامات «عائلية» غير شكلية. مشهد آخر: اطفال ترانسفال البيض يحيون رئيس الجمهورية. نظرات اعجاب، اعلام ذات الالوان الثلاثة، صرخات تحية. ابتسامة بوتا الابوية. ربطة عنق بنية اللون وباقة صغيرة حمـــراء بيضاء في قلبة السترة اليسرى، ووسام النجمـــة على شريط من الالوان الاحمر والابيض والازرق.

كل شيء مدروس حتى اللمسات الاخيرة.

قدراته على التقاليد السياسية هائلة. و «بتجسيداته» استطاع غالبا ان يخدع ويفوز ليس فقط على خصومه، بل وعلى الحماة المؤثرين فى البلدان الاخرى، وان يزرع تخيلات، ويجعل السياسيين والديلوماسيين يثقون بكلماته. وحينما يتقمص بوتا شخصية «الليبرالى» يتعجب الكثيرون: لماذا يسمون هذه الشخصية الذكية والواقعية المتفهمة بهذه الدقة لمشاكل جمهورية جنوب افريقيا الحالية عنصريا.

وبوتا عالم بالحالة النفسية لابناء قبيلته ويتلاعب بخوفهم من الهزات القادمة لا محالة، موجها ذلك الخوف فى سيله المعتاد الصاب فى «الخطر الشيوعى».

والساذج الابيض مثلا واثق من ان كلمة «الابيض» فى البلدان الاشتراكية تستعمل مرادفا لكلمة «عنصرى» او «مستعمر» او «قاتل» ويعتقد، انهم فى البلدان الاشتراكية يريدون رمى الافارقة الجنوبيين البيض فى البحر. وان الاتحاد السوفيتى له مصلحة فى البقاء على حالة النزاع فى جنوب افريقيا، لانه يسعى للحصول على الماس والذهب واليورانيوم وغيرها من المعادن الثمينة، ناهيك عن وضع سيادته وسيطرته على الطرق البحرية الهامة حول رأس الرجاء الصالح. ولذلك حينما يعلن بوتا وبصوت مأسوى بان «الدب الروسى يقف عند عتبة الدار» تعج الجماهير بصرخات الغضب المعادية للاتحاد السوفيتى. ثم ان هيئة الدب الروسى الغادر انطبعت فى ذهن الافريقى الابيض المتوسط بشكل تلعب الدعاية المعادية للاتحاد السوفيتى معه لعبتها لمجرد الاشارة الى

اى خطر بغض النظر عن مصدره. الافريقى الابيض واثق من وقوف موسكو وراء كل شيء.

عدا ذلك يعتبر بوتا استاذا فى الدس السياسى. ففى اللحظة الحاسمة يعبئ جميع القوى لانزال الضربة الخاطفة والماحقة بخصمه. فاللمعة الفولاذية في عينيه اوقفت دائما خصومه وحتى انصاره. وبوتا لم يرحم ايا منهم اذا ما وقف فى طريقه.

عندما تحدث أ. تريورنيخت الرئيس الحالى لحزب المحافظين اليمينى المتطرف ضد اصلاحات بوتا عام ١٩٨٢، ارغمه الاخير على ترك مناصبه في الحكومة والاستقالة من الحزب. وبعد مرور ٥ سنوات على ذلك التاريخ نظم حملة للتشهير باولئك الذين ابتعدوا عنه د. ووريل، وف. مالان وغيرهما من «الفارين اليساريين» الذين تمتعوا منذ فترة قصيرة سبقت ذلك بمكانة خاصة وثقة.

والقبضة الحديدية لبوتا يشعر بها اكثر فأكثر الشباب الابيض الذى لم يرغب بالسير كالضرير الى هاوية سياسة التفرقة العنصرية، والذى رفع في ايار (مايو) ١٩٨٧ شعار «بوتا ارهابى!» وحينما ابقت هراوات وسياط الشرطة آثارها على ظهور طلاب جامعة كيب تاون. كما رفع طلاب جامعة جوهانسبورغ شعار «ليشنق بوتا!، اطلقوا سراح مانديلا!» حيث اطلقت عليهم الشرطة الخردق.

واذا ما استرشد بوتا بمغايرات الحياة السياسية لقبيلته، وشعر الى اى حد ستسير وراءه الاكثرية في اللحظة الحاضرة، لكشف وراء جدران المعسكر الابيض عن جهله المنقطع

النظير ولسار متلمسا كالاعمى ولخرج بنتائج لا يحسد عليها.
ولا عجب في ذلك، فقد اعتمدت مصادر معلومات الدوائر الحاكمة بصدد حياة وامزجة الاغلبية السوداء دائما على ما يقدمه الموظفون الذين ارتشفوا معلوماتهم مما قدمته الصحافة، ومن محادثاتهم مع المختارين بشكل جيد من «ممثلي الشعب». لقد منعت بشكل فعلى أية اتصالات حية مع الافريقيين. وخرق بوتا ذلك التقليد. فخلال ١٠ سنوات من تسنمه دست الحكم قام بزيارتين رسميتين الى الضواحي السوداء، كانت الاولى عام ١٩٧٩ والاخرى عام ١٩٨٧. وفى كلتا الحالتين ابرزت الصحافة الموالية للحكومة جرأته وليبراليته، اما المتطرفون اليمينيون فقد اتهموه بخيانته لمثل الافارقة البيض.

ما افضل النظام والمثل التى تسمح حتى لبيتر بوتا ان يبدو راديكاليا!

حسن ما قال كولين ايغلين زعيم الحزب التقدمى الفيدرالى الذى فشل فى انتخابات ايار (مايو) ١٩٨٧ فقد قال وهو يعلق على الاتهامات التى وجهها اليمينيون لبوتا فى اول يوم اجتماع تشكيلة البرلمان الجديدة: «ها هى تجلس امامنا حكومة الحزب القومى المدافعة عن مبادئ التحديدات العنصرية، ومختلف مناطق السكن، والفصل العنصرى فى المدارس والمستشفيات والسكن وفى الدستور، والتى يتهمونها فى التمادى باللبرالية. ما احلكه من يوم بالنسبة لجنـــوب افريقيا!»

وبعد انتصار بوتا فى الانتخابات اعلن من جديد عن نيته فى التعجيل باقامة الاصلاحات وبضمنها اقامة مجلس استشارى من قادة الاغلبية الافريقية الذين «يرفضون القسر ويسعون للسلام».

لم تلغ فى البلاد حالة الطوارئ، والسجون غاصة بزعماء الاغلبية الافريقية المعترف بهم، والمدرعات تجوب فى البلدات السوداء والمـــدن الجامعية. ومنعت الصحف من التعليق على ارهاب الشرطة، ولا يستطيع الناس بشكل طبيعى دفن اقاربهم الذين سقطوا صرعى ضحية ذلك الارهاب. ولا بأس هنا من ذكر كلمات الكسندر هيرتسن الديمقراطى الثورى الروسى التى قالها فى عصر آخر تماما لكنها تدوى حتى يومنا هذا: «الاصلاحات لا تتم بسد الافواه والتعذيب والتشريد والسوط!»

الطريق الذى يقترحه بوتا بعيد جدا عن الطريق المؤدى الى الديمقراطية الحقة فى جمهورية جنوب افريقيا. فالوضع السياسى والاقتصادى والديموغرافى يتطلب منه ومن حزبه اكثر بكثير من التنازلات التافهة. فمن الضرورى اجراء تحولات جذرية، والغاء قوانين الفصل العنصرى واطلاق سراح السجناء السياسيين. ومنح شرعية العمل لكل الاحزاب والمنظمات السياسية، والغاء حالة الطوارئ. فعاجلا ام آجلا ستجبر بريتوريا على الجلوس الى طاولة المباحثات مع الممثلين الحقيقيين للاغلبية الافريقية. فكل القضية تكمن فى وقت حدوث ذلك وهل سيجرى الان ما دامت لم تنفد بعد فرص التسوية السلمية، ام بعد نزاع دموى طويل يودى بارواح آلاف جديدة من البشر؟

المورغينزونيون والكيبليندنيون

فى ١٦ كانون اول (ديسمبر) عام ١٨٣٨ لقى حوالى ٣ آلاف محارب زولوسى حتفهم فى معركة بالقرب من النهر الدموى برصاص الافارقة البيض. وهذا اليوم تحتفل به جمهورية جنوب افريقيا البيضاء كعيد وطنى. وروح النهر الدموى لا تزال تحيا فى وعى الافريقى الابيض المؤمن، وتظل امرا يفخر به. وكل يوم تقريبا يمكن للمرء ان يسمع الكلمات التالية «يزحف نهر دموى جديد، معركة رهيبة جديدة من اجل بقاء امتنا، فالشيوعية العالمية تهدد جنوب افريقيا فى هيئات مختلفة». ومنظرو الفصل العنصرى فى محاولة منهم جعل الافريقى الابيض يتطلع بناظره الى الوراء والنظر الى عصر الحملة العظمى يواصلون استنباط افريقى ابيض جديد ممثل لـ«عنصر الابطال». فالمراسم السنوية فى مكان المعركة التى دارت عند النهر الدموى: كل حاضر فى هذا الاحتفال يمسك حجرا ويضعه عند النصب وبذا ينمو جبل على مرآى الجميع يمثل رمزا من نوع خاص للوحدة والاستعداد للقتال حتى النفس الاخير. فالاحجار هى الافارقة البيض.

لكن الوحدة تلك التى يتكلمون عنها لم يكن لها وجودا

ولم توجد. فالصدامات الدموية قامت بين الافارقة البيض انفسهم. وعصيان الجنرالين دى لا رى ودى فيتا وغيرهما عام ١٩١٤، واضراب عمال المناجم البيض عام ١٩٢٢ عندما اعلنت حكومة سميتس حالة الطوارئ وقابلت المضربين بقاذفات القنابل والمدافع، والصراع بين مؤيدى ومعارضى اشتراك جمهورية جنوب افريقيا فى الحرب ضد المانيا الفاشية — كل ذلك امثلة قليلة.

والقوالب القديمة عن الرفاهية صارت تتحطم تدريجيا فى اذهان الافارقة الجنوبيين البيض. فالحياة لا تزال غنية، لكن البندقية محشوة واليد على الزناد، والكلب وراء سياج عال، وتشبيكة حديدية بين غرفتى النوم والاستقبال تقفل وقت الليل حينما ينام اهل الدار. فى بيتك لا تشعر بالاطمئنان، القلق يلفك كل لحظة. حينما تتذكر بيتك تعود بك الذاكرة الى هيئة «القلعة». وهل ستتحمل قلعتك الحصار؟ الاقوياء لا يشكون من ذلك، وبرأيهم ستدخل جمهورية جنوب افريقيا القرن الحادى والعشرين «بيضاء» حتى وان كانت بحجم اصغر.

وكل خطط الدفاع والهجوم المضاد تقريبا التى توضع العشرات منها فى المجتمع الابيض تقترح الابقاء على نظام الفصل العنصرى المتمثل فى «التطور المنفرد».

تجزئة كل شيء، حتى البلاد الى نصفين او عشرة اجزاء واقامة اتحاد، او ابراج، اتحاد بين البيض والسود، او ادارة كثيرة الدرجات، اى شيء ولا مبدأ «انسان واحد — صوت

واحد». هذا ما يطالب به المجتمع الابيض هناك.

يعتبر كاريل بوشوف احد الشخصيات البيضاء المعروفة ان سياسة الفصل العنصري يجب توصيلها الى النهاية المنطقية، والانتهاء باسرع وقت من اقامة عشرة بانتوستانات سوداء «مستقلة». ومن ثم يضيف البروفسور المذكــــور، يجب اقامة البانتوستان الابيض الحادى عشر الذى يعيش فيه ويعمل البيض وحدهم: الوزراء البيض والعمال البيض والزبالون البيض والنادلون البيض.

فى عام ١٩٧٧ وضع فى باطن «بروديربوند» مشروع «اورانج» خصص للبانتوستان الابيض على ضوئه اغنى جزء من اراضى جمهورية جنوب افريقيا — فى حوض نهر اورانج، غرب كيمبيرلى. حتى انهم ابتكروا تسمية مملكة البيض المقبلة — «اورانجيه». اما بخصوص الوزراء وحتى النادلين فلم تواجه بوشوف بشأنهم اية مشاكل. القضية بالنسبة للقوى العاملة غير المؤهلة، من الذين سيعملون زبالين؟ هذا السؤال طرحته فى جلسة صحفية فى هارارى على احد الافارقة البيض القادمين الى زيمبابوا لزيارة اقاربه. فاجاب بفخر تصحبه قهقهة «اذا كانت رغبتنا بذلك كبيرة، سنعمل حتى زبالين».

وفكرة الدولة «البيضاء النقية» تظهر من وقت لاخر فى مجتمع البوريين المفزوع. وفى أواسط الثمانينات بدأت حركة «المزارع البيضاء» التى كان باستطاعتها ان تصير نموذجا أصيلا لمجتمع المستقبل الخالى من السود.

وفي قرية مورغينزون التي تبعد لمسافة ٢٠٠ كيلومتر عن جوهانسبرغ استقر انصار هذا النموذج لانفراد البيض. ومن بينهم هيندريك الاصغر ابن هـ. فيرورد رئيس وزراء جنوب افريقيا السابق الذي يعتبر مصمم سياسة الفصل العنصري، وتلك ليست مصادفة. فكل ما يقترحون اقامته على اساس مورغينزون هو شكل متطرف للفصل العنصري.

ومنذ عام ١٩٨٠ توجد هناك «جمعية عمال محافظة اورانج» (وفي عام ١٩٨٧ كان تعداد افرادها ٢٠٠٠ شخص)، وضعت نصب عينيها مهمة تنظيف المنطقة من السود كليا. وترأس الجمعية يوحنا فيشر وهو صاحب مزرعة تخلى عن العمل الاجير. وبرنامج فيشر بسيط لاقصى حد. ويدعى بان البيض افسدهم العمل الرخيص الذي يوافق على القيام به الافريقيون. فبدل من ان نرفع شوالا باذرعنا نستدعي لذلك افريقيا ونأمره بعمل ذلك. وبذلك يصبح المالك عبدا لعبده. يجب العدول عن هذه العادة، ونعمل كل شيء بانفسنا. نحن نأمل بان الناس سيفهمون هذه الحقيقة البسيطة. والسود حينما سيشعرون بعدم وجود عمل لهم هنا، سيبحثون عن مكان آخر ينتقلون اليه، وسنبقى نحن وحدنا.

انصار الـ«مورغينزون» قليلون بعد، ومعظم البيض يستهزء بهذه الفكرة معتبرا بحق ان المتطرفين البيض الذين اعماهم مرض العنصرية لا يعون حقيقة وواقع اليوم. لكن اذا ما امعنا النظر في مخططهم نراه في جوهره لا يختلف كثيرا عن مخطط بريتوريا التي تطالب بالابقاء على امتيازات البيض في جميع

المجالات ومهما تلغيز مستقبل جمهورية جنوب افريقيـا، وما عدا الـ«اورانجيه» و«موزغينزون» تولـــد فى عقول البلداء خطط اخرى لا تقل يأسا عن سابقتها بصدد حل المسألة القومية: واندرياس تريورنيهت احد اكثر خصوم التحولات، زعيم حـــزب المحافظين تقدم عام ١٩٨٣ بفكرة اقامـة «كالاريدستان» — وهو محجر للملونين. واقترح القس القديم انشاء جنب ذلك المحجر آخر للاسيوين. يا له من منطـق افلج. لكل عنصر «دولته» و«حكومته» الخاصة و«برلمانه».

وردا على سؤال موقفه من امكانية اقامة ادارة للاكثرية اجاب تريورنيهت عام ١٩٨٧:

لم يوافق البيض ابدا على مثل هذا الرأى، فالبيض يجب ان يديرهم البيض. دع السود يديرون شؤونهم فى دولهم هم — اى فى البانتوستانات. فبرلماننا يجب ان يظل برلمانا للبيض.

والبروفيسور غيفين ماسدورب يقترح تقسيم جمهورية جنوب افريقيا الى دولتين: كيبليند وكابريكورنيا وبسكان مختلفين. ومؤلفا كتاب «جنوب افريقيا. الحل» (١٩٨٦) ل. لاوف وف. كيندال يريان المخرج فى تحويل جنوب افريقيـا الى «رقعة شطرنج» — اتحاد ٣٠٦ وحدة ادارية تقوم على اساس التطوعية وفق الدلائل العنصرية او على اساس خال من العنصرية. وسيستطيع كل حزب او فئة داخل هذه التشكيلة تحقيق نظرته التى يرى بموجبها مستقبل جمهورية جنوب افريقيا. وكل وحدة ادارية سيكون لها برلمانها وحتى دستورها.

وفي ظروف حرية تحرك وتنقل الناس ونقل البضائع ورؤوس الاموال سينخلق تكامل عاجلا ام آجلا. وفقط في المناطق الريفية وحدها يمكن ان يبقى على مناطق «بيضاء» نقية.

والبعض يعتبر افضل وسيلة لاقامة ما يدعى بمناطق متعددة العناصر مع الابقاء ولمدة غير محدودة على نظام الادارة الحالي. ومختلف مجاميع السكان ستنتقل بالتدريج الى «الحكم الذاتي المشاعي». اما خبرة الادارة الذاتية المحلية المتعددة العناصر التي ستستمد خلال تلك العمليات فستخرج خارج حدود تلك المناطق وتنتشر على انطقة اقليمية ومن ثم قومية.

ليس واضحا ما هو اكثر في هذه المناظرات — هل السذاجة واليأس ام القصد الشرير. «مثل هذا التخطيط يقود الى خلق وضع مشابه لذلك الذي قام نتيجة الحرب الاهلية في بيلفاست او بيروت»، — هذا ما كتبه الصحفي الامريكي جوزيف ليليفيلد في كتابه «انجلي بظلك» المكرس لمشاكل جمهورية جنوب افريقيا المعاصرة.

في ايار (مايو) ١٩٨٣ اصدر المدعو اولاف شوير من ضاحية ايرميلو شرق جنوب افريقيا، وبنفقات الكنيسة الاصلاحية الهولندية كراسا بصدد «النهج الجديد» للحكومة. والنهج الجديد الذي اعلنه هذا المؤلف لا يتعدى كونه «مؤامرة الحمر ضد جمهورية جنوب افريقيا». من الذي يدخل في عداد «الحمر»؟ اتضح انه بوتا رئيس جمهورية جنوب افريقيا وج. كروكير مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية

4*

للشئون الافريقية، وكيسينجر وزير الخارجية الامريكى السابق، (الذى يعتبره المؤلف عميلا للجنة امن الدولة السوفيتية يعمل بأسم مستعار هو «بور»). ولم ينس المؤلف ساموا ماشيل اول رئيس لموزامبيق. وقد قام هذا البليد اولاف باكتشاف عبقرى حينما ابلغ القراء بان «ماشيل قد خصص له دور دكتاتور جنوب افريقيا كلها لان اسمه ساموا فى واقع الحال ليس اسما وانما الحروف الاولى لاسماء هى ساوث افريكا (جنوب افريقيا) وموزامبيق وروديسيا وانغولا». اما سميث رئيس وزراء روديسيا السابق فقد راح ابعد من اولاف بكثير حين اتهم هيئة الامم المتحدة، وصحيفة الغارديان البريطانية ومدرسة لندن للاقتصاد بالتعاون مع «الحمـــر».

والمزارع الابيض من محافظة ترانسفال اوضح عدم رغبته فى ترك سياسة الفصل العنصرى على الشكل التالى: «يكمن الموضوع كله فى المستوى الحضارى. فالحضارة البيضاء أعلى بكثير من حضارة الافريقيين. فكيف يمكن الخلط بين الحضارتين اللتين تعتبران نمطا حياة مختلفين؟ هذا امـر مستحيل. واذا ما منحنا الافريقيين كل الحقوق السياسية، فسيطالبون باقامة حكومتهم الخاصة. واينما جرى مثل هذا الشيء فى افريقيا نراه قد انتهى بهبوط حاد للمستوى الحضارى. واذا ما الغينا تطور المشاعات المنفردة، فان جمهورية جنوب افريقيا ستفقد مستقبلها. وستذهب هدرا الحضارة وملحقاتها وكل شيء».

اليكم وصف بريتين بريتينباخ الكاتب والشاعر الافريقى

الشهير الذى قضى سبع سنوات فى سجن الاشغال الشاقة بتهمة الخيانة العظمى، «للبلداء».

انهم متعصبون يشبهون رجال المخابرات الاسرائيليين او يحاولوا التشبه بهم، اى انهم ليس فقط يؤمنوا بعدالة قضيتهم، بل وواثقون من ان العالم كله ملتحم ضدهم، لذلك يبررون أى اسلوب يستخدمونه لتحطيم او القضاء على اولئك الذين يعتبرونهم اعداء لهم. والافارقة البيض يشبهون انفسهم بالاسرائيليين كشعب اللـه المختار وكدولة عصرية مطوقة محاطة ببحر من الاعداء... ولم يغفروا لى لاننى اسميتهم فى قصائدى اناسا ذوى عقول من العلكة... وهم خطرون ايضا لانهم يعيشون فى عزلة عن العالم، وحيث اختلطت هناك الحقيقة والبهتان، وان رد فعلهم على اى حدث لا يمكن التنبؤ به. فمثلا نراهم يثقون تماما بمؤامرة العالم كله برئاسة الشيوعيين (او بمساعدتهم) بهدف الهجوم وتحطيم القلعة التى يحمونها هم. كما نراهم يعتقدون ان القضاء على جمهوريتهم يعتبر الهدف الاساسى والرئيسى الذى يضعه الكرملين نصب عينيه. ونشاهدهم يثقون ايضا بان الشيوعيين يريدون الاستيلاء، على الذهب والماس وغيرهما من الثروات الاستراتيجية الموجودة على ارضهم.

وموجة الاعمال المعادية للعنصرية ابان السنوات الاخيرة تسببت بحدوث انشقاق وسط البيض، وفى الوقت نفسه الحمت الاحزاب والتجمعات اليمينية المتطرفة التى ترفض اية تغييرات فى سياسة نظام الفصل العنصرى.

وبعد عام ١٩٨٢ وحينما انشق حزب المحافظين اليميني برئاسة أ. تريورنيهت عن الحــزب القومي نشط المتطرفون الافريقيون الجنوبيون بشكل ملحوظ. وفي عام ١٩٨٤ اضيف اسم جمعية «حرس شعب الافارقة البيض» التي دخلها جميع ممثلي الحركة اليمينية المتطرفة تقريبا الى القائمة الطويلة باسماء المنظمات اليمينية. وفي عام ١٩٨٥ اعلن تجمع «حركة المقاومة الافريقية» عن استعداده الى الانتقال الى النضال المسلح من اجل حماية السيطرة البيضاء. وقد ترأس ذلك التجمع يوجين تيربلانش القومي الاشتراكي الشرطي السابق ونصير هتلر. وانصار تيربلانش يرتدون جزمات ثقيلة سوداء وقمصانا بيضاء واربطة عنق سوداء رسمت عليها علامــة الحزب وهي تقليد للصليب المعقوف. والتحية الرسميــة يؤديها افراده على الطريقة الفاشية حيث يمدوا ذراعهــم الايمن الى الامــــام.

وتيربلانش الذي احيانا يسمونه فوهرر النازيين الجــدد لجنوب افريقيا تنبأ بتطور الاوضاع في جنوب افريقيا علــى الشكل التالي: اذا بدأ السود الثورة وتستسلم حكومتنا وتمنحهم ارضنا، واذا بدأ السود الثــــورة لكي يحطمـــوا بيوتنا ويغتصبوا نساءنا وحتى اطفالنا، عندذاك ستقاومهم القوة البيضاء بقيادة «حركة مقاومة الافارقة البيض» التي ستنزل بهم ضربة جوابية بشكل ثورة مضادة، وسنسترجــع ارضنا التي هي لنا وحدنا وبكل حق، وسنقيم دولـــة الانسان الابيض...

نراهم لا يستعجلون فى انتظار اللحظة المواتية لكى ينزلوا الضربة الحاسمة – هذه كلمات احد الصحفيين الافريقيين الجنوبيين – الكثيرون فى بلادنا لا يقيمون حق التقييم خطر المتطرفين اليمينيين. يقولون عددهم قليل وليس لهم تأثير يذكر... لكن تذكروا من اى شيء بدأ هتلر.

تحلم القوى اليمينية المتطرفة ليس فقط بـ«الحملة العظمى» الجديدة و «سورغينزون». فى عام ١٩٨٥ بثوا اشاعات مكثفة بصدد وجود مؤامرة ضد الحكومة فى اوساط السلطة العليا بهدف اقامة دكتاتورية عسكرية. واعلنت صحيفة «فاندريدى – سامدى – ديمانش» الباريسية فى ١٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٥ انه شارك فى المؤامرة المذكورة عدا كبار العسكريين فى جهاز الدولة، بعض الوزراء وزعماء المخابرات. واضافت الصحيفة تقول ان سبب استياء المشتركين فى المؤامرة يكمن فى ضرورة تطويق الاصلاحات التى، – حسب رأيهم، – تخلق الظروف لاشتراك الاغلبية السوداء فى الادارة، والقضاء على السكان البيض ونسف الحضارة الافريقية الجنوبية. كما ووضع برنامج اعمال: وقف العمل بالدستور، فرض حالة الطوارئ فى جميع ارجاء جنوب افريقيا، وفرض قوانين حالة الحرب. لم يكن هناك شكا فى النجاح. واعلنوا: باستطاعتنا ونحن نمتلك جيشا كالذى عندنا الامساك بزمام الامور على مدى عشر او عشرين سنه وبدون مساعدة من الخارج.

هناك قضية هامة جدا. كان وسط المتآمرين افارقة بيض فقط (ذكروا اسم م. مالان وزير الدفاع، والوزراء ل. ليه

غرانج، و ف. د. كليرك، و هـ. هيونيس)، اى ان المآمرة كانت ذات اتجاه معاد لبريطانيا ايضا. وقبل كل شيء لان رأس المال الكبير الذي كان يخدم مصالح الجزء الناطق بالانجليزية من المشاعة البيضاء (انجلو— اميريكين)، (دى بيرس) وغيرهم، مستعد— حسب رأى الافارقة البيض، — للقيام بأى شيء كيلا يتحمل ضررا. ونراه مستعد حتى للتضحية بالافارقة البيض. ووصل الامر لدرجة صار ممثلو تلك الحملات يبدأون مباحثات مع الكونغرس الوطني الافريقي. واعلن احد «البلداء» في البرلمان: اذا ما استمر الوضع على الشكل الحالى فقريبا سيقدمون للكونغرس الوطنى الافريقى الاموال كى يشترى الافارقة بها السلاح ويقتلون البيض.

لهذا السبب بالذات يقول احد شعارات اليمينيين المتطرفين «لا للاجراءات النصفية».

يمكنهم القول ان المؤامرة لم تتم. نعم ونحن بدورنا ولحد الان لم نسمع بانقلابات في قصور بريتوريا. لكن ما يستحق ذكره هو ان برنامج المتآمرين كان قد نفذ قسمه الاعظم عام ١٩٨٦. فقد اعلنوا حالة الطوارئ في البلاد، وصار الارهاب والقسر امرا طبيعيا في الحياة اليومية، وسادت في الضواحي التي يسكنها الافارقة قوانين حالة الحرب.

باية وسائل استدرج البيض الاخرين الى معسكرهم. الوسائل قديمة وسجربة. قسم خوفوه بالخطر الشيوعى، وقسم بالعنصرية السوداء. وعن بعض آخر أثروا عبر منظمات ثقافية جماهيرية يدخل في عدادها اغلبية الافارقة البيض.

واستخدموا ضد من لم يتقبل مثل تلك الحجج مختلف وسائل الارهاب. ووجود الافريقي الابيض المتوسط بحد ذاته مرتبط بحفنة من المتعصبين. اما الحرية التي يضحي بحياته من اجلها فلا تتعدى مادة للمضاربة التي يمارسها العنصريون البلداء، وما يسمى بـ«الاصلاحيون» فنراهم وغيرهم يرومون للحفاظ على السيطرة البيضاء في جمهورية جنوب افريقيا ومستعدون للتضحية بابناء قبيلتهم من اجل افكارهم المجرمة والفاشلة حتما.

مـــع مـــن؟

في احد اللقاءات الصحفية قالت نادين غورديمير الكاتبة الافريقية الجنوبية المعروفة ردا على سؤال حول تصورها لجمهورية جنوب افريقيا مستقبلا: «باعتقادى ان بلادنا تحتاج الى حكومة اشتراكية ديمقراطية تترأسها الاغلبية السوداء... والكثير في بلادنا يخاف من اشراك الافارقة في الحكومة معتبرين ذلك العمل نهاية للديمقراطية. اية ديمقراطية يتحدثون عنها؟ فهل يمكن حاليا تسمية بلادنا ديمقراطية؟»

مشكلة «مع من انت؟» تشغل اكثر فاكثر تفكير الافارقة الجنوبيين البيض. فموقف «الليبرالي»، اى ذلك الذى بالكلمات وحدها يندد بالفصل العنصرى، وفي داخله امل في بقائه، لا يطاق بعد الان وغير مستقر. وايلين سوزمان احدى اقدم ممثلات الفئة الليبرالية في المشاعة البيضاء، عضوة البرلمان عن الحزب التقدمى الفيدرالى المعارض عبرت بعبارة واحدة عن الموضوع هذا كله قائلة: «سنسحق تماما، ويفقد الليبراليون اية اهمية».

ونادين غورديمير متفقة معها تماما: «تعالوا نترك الحديث عن الليبراليين البيض. فالان حتى رجال بوتا يعتبرون ليبراليين.

وهذا الاصطلاح يستخدم بشكل غير قانوني... فتسمية ليبرالي تطلق اليوم على كل من يثق بامكانية الاصلاحات التقدمية، الا ان العنصرية لا يمكن اصلاحها».

في تصور البيض للمستقبل المفجع الذى ينتظرهم لا يوجد طريق ثالث، وسوف لن يبقى مجال للتفكير. وهذا الموضوع مطروق في نتاجات ج. م. كيوتسيه الكاتب الافريقي الجنوبي المعروف. ففي رواياته المليئة بالرموز الحالكة، ينظر سكان البلاد احدهم الى الاخر عبر شقوق التصويب. ومن يحاول تسوية الامور مع السلطات، ويدير نظره عن سيل الدم، ويصم اذنيه كي لا يسمع صراخ المعذبين، يضحي هو نفسه في نهاية الامر ضحية لهذا النظام غير الانساني — هذه هي فكرة رواية «بانتظار البرابرة». في مثل هذا الوضع بالذات يقبع محافظ المدينة — البطل الرئيسي للرواية والذى يجرى الحوار بأسمه. ونتيجة للتجارب المرة والمهينة التي تعرض لها نراه يعي استحالة العيش خارج التاريخ الذى تفرضه الامبراطورية على مواطنيها!

... لقد اضحى الانشقاق الجديد داخل الحزب القومي الحاكم عام ١٩٨٧ علامة للاستقطاب المتزايد وسط البيض. وقد طالب عدد من ممثلي الحزب المرموقين وبينهم سامبي تيروبلانش برفيسور جامعة ستيلينبوش، ودينيس ووريل سفير جمهورية جنوب افريقيا السابق في بريطانيا، وفيناند مالان عضو البرلمان، طالبوا باتخاذ اجراءات حاسمة لالغاء قوانين الفصل العنصري.

لقد اعلن د. ووريل: الاصلاحات التى تقترحها الحكومة غير كافية اليوم. فجنوب افريقيا البيضاء تطالب باكثر من ذلك.

وندد «القوميون الجدد» هكذا اسمت نفسها مجموعة منشقة، بسياسة الحكومة، واعلنوا ان ٣٠٪ من اعضاء الحزب يؤيدون وجهات نظرهم. اضافة الى ذلك صاروا يتحدثون حتى عن امكانية تحالف بين «القوميين الجدد»، والحزب الفيدرالى التقدمى والجبهة الديمقراطية المتحدة التى تضم حوالى ٧٠٠ منظمة ومجموعة تعادى الفصل العنصرى (الابارثيد).

والتحق بـ«القوميين الجدد» ٣٠٠ معلم وبروفيسور من جامعة ستيلينبوش (رئيس الجمهورية بوتا هو رئيس جامعة ستيلينبوش). ورفعوا مذكرة لرئيس الجمهورية مطالبين فيها اتخاذ اجراءات اكثر حسما للقضاء على الفصل العنصرى.

ومغزى هذه الخطوة السياسية يصعب تقييمه: فرأى الاوساط العلمية حظى على الدوام بأهمية بالغة فى المشاعة الافريقية البيضاء. ونفس الشيء يمكن قوله بالنسبة لوسائل الاعلام الجماهيرى الصادرة بلغة افريكانس، والتى تعمل حتى الوقت الاخير فى خدمة الحزب القومى وتعتبر دعامته الامينة. بيد ان التصدعات بانت بوضوح الان فى ذلك الجزء من الاساس الابيض: احال نفسه على التقاعد احتجاجا على نهج بوتا رئيس تحرير صحيفة «رابورت» وليم دى كليرك والتى تعتبر اكبر صحيفة للافارقة البيض. وحذا حذوه راستى فان دروتين المعلق التلفزيونى الشهير.

والضجة التى اثارها الانشقاق الجديد كمنت ليس فى كون سمعة جميع «الفارين» لا تشوبها شائبة و ١٠٠٪ افارقة بيض، بقدر ما كمنت فى كونهم وبواقع الحال تحدثوا بشكل «اكثر يسارية» من المعارضة البيضاء الرسمية، التى تمثل وبشكل تقليدى مصالح الجزء المتحدث بالانجليزية للمشاعة البيضاء. لنذكر بهذا الخصوص ان العداوة بين الافارقة البيض والانجليز التى ولدت ابان سنوات النضال من اجل التأثير فى جنوب افريقيا وبخاصة فى زمن الحرب الانجليزية البورية، تحدد ولحد الان ولدرجة كبيرة العلاقات فى المشاعة البيضاء. لذلك ومن وجهة النظر الاخلاقية والرأى العام للافارقة البيض، تأييد موقف الانجليز كفر اكبر من مجرد تراجع، او معارضة الزعماء ذوى المواقف اليمينية المتطرفة.

ورغم الحجج التى يتحجج بها «القوميون الجدد» فى موقفهم ضد دوغما الفصل العنصرى نراها تختلف بطبيعة الحال وبشكل كبير عن تلك التى تدفع الجماهير الشعبية الى النضال، كما ان موقفهم عرضى تماما. فهم يشعرون بحتمية انهيار النظام ولا يريدوا الوقوع فى معسكر واحد مع اولئل الذين يحاولون الدفاع عن شيء مصيره الهلاك. ثم انهم حتى على استعداد ولفترة محدودة للدفاع عن نضال الاغلبية المظلومة.

اليوم نشاهد استعداد دوائر معينة من البرجوازية الراديكالية وطبقة الرأسماليين العمل وفى آن واحد مع الكونغرس الوطني الافريقى وغيره من الحركات. يقول جو سلوفو الرئيس القومى للحزب الشيوعى لجنوب افريقيا — نحن نعتبر ان الجبهة الايجابية

للموقف الحالى تكمن فى هذا بالذات، وهذا كما نأمل سيساعد على تقدم الثورة.

ومسألة «مع من نكون؟» يتقبلها بمرارة خاصة اولئك الذين لديهم ما يفقدونه فى حالة ظهور مقدمات حقيقية لاقامة تسوية عادلة. وبهذه المناسبة يدعو النشاط الملحوظ لدوائر رجال الاعمال الذين احيانا ما يظهرون انفسهم وكأنهم اشبه بطليعة النضال ضد الفصل العنصرى، يدعو الى شعور بالشك لدى الافريقيين الجنوبيين الشرفاء. والكاتبة نادين غورديمير ردت على سؤال بصدد دور دوائر رجال الاعمال فى الحركة المعادية للعنصرية الذى طرحته صحيفة «بايس» الاسبانية فى نيسان (ابريل) عام ١٩٨٧: «منذ سنتين بدأوا مباحثاتهم مع تامبو فى لوساكا، لكنهم لماذا يتجاهلون الجبهة الديمقراطية المتحدة والحركة المعادية للعنصرية العاملة داخل البلاد؟ لقد حان الوقت للتوقف عن تأييد نظام بوتا».

فى جمهورية جنوب افريقيا اليوم تلاحظ مبادئ واصول لكيفية استخدام ممثلى البرجوازية ذوى الامزجة الليبرالية شعارات ضد حكومة السلطة ومطالبتهم بالغاء النظام المتعفن. والدوائر ورجال الاعمال، وممثلو المثقفين والطلاب وحتى المنظمات الافريقية البيضاء المؤثرة تعمل بصلة وثيقة مع الكونغرس الوطنى الافريقى وتجرى مباحثات مع هذه المنظمة التى لا يمكن الا تعتبر قوة رائدة فى العملية التحررية.

والبرجوازية الافريقية الجنوبية هى الاخرى ليست لها مصلحة فى انفجار ثورى. فهى وبلا شك تتمنى تغييرات، لكن

تغييرات غير ثورية على الاطلاق لانها ترتعد خوفا من فقدانها وزنها فى المجتمع. لذلك ستكون مستعدة لتأييد الحركة التحررية لحد معين. والاكثر من ذلك لم تعارض مثل ذلك التطور للاحداث الذى قد يؤدى الى تصادم بين المدافعين عن الفصل العنصرى وخصومه، وتكون التاءه فى دور المتفرج. والوضع الامثل بالنسبة لها الا يحصل لا هذا الطرف ولا ذاك على فوز كامل، وان يتوازنا الواحد تجاه الاخر، عندئذ تجبر البرجوازية الشعب بعد ان تنفض كل «ثوريتها» على الرضا بأدنى حد من التنازلات، اى بما تتصدق به عليه. والحركة التحررية يمكن فى نهاية المطاف ان تصبح قوة مساوية للسلطة لكن وبأى حال من الاحوال ليست اقوى منها.

البرجوازية الكبيرة فى جمهورية جنوب افريقيا تعى حتمية تخليها عن جزء من الارباح نتيجة للتحولات الجذرية. لذلك تقنع الافريقيين بالحاح كى يتحلوا «بالحصافة والتعقل»، وتدعو لاقامة «جو من الانفراج»، وتحذر من «النتائج المهلكة» للتحولات الجذرية فى المجال الاقتصادى. وسياستها واضحة وضوح الشمس: الابقاء على العادات الرأسمالية وعلى الاشراف السياسى بيد عملائها وصنائعها.

وليس صدفة ان يحاول الرأسمال الكبير فى جنوب افريقيا حاليا متمثلا بشكل خاص «بالانجلو — امريكى» اقناع زعماء الكونغرس الوطنى الافريقى بعدم القيام بتحولات اجتماعية اقتصادية من شأنها المس بمصالحه. اما المصرف البريطانى «باركليز» الذى اعلن فى نهاية ١٩٨٦ عن خروجه من جمهورية

جنوب افريقيا فيطلب بدوره من الكونغرس الوطني الافريقي بعد استلامه السلطة مساعدته في استرجاع قسم من الودائع المصرفية التي لم تسمح له بريتوريا باخراجها. وكلهم مجتمعين يقنعون المنظمات التحررية انه وفقط في اطر النظام الرأسمالي يمكن تحقيق اعادة توزيع السلطة السياسية وضمان الحقوق القانونية للسكان السود.

يقول جو سلوفو — علينا الا نغرق في التخيلات. علينا ان نعي بشكل دقيق ونشاهد بأم العين ان قسما من هذه القوى يحاول خلق وضع تكون السلطة فيه مقسمة بدون تغييرات واقعية في حقل المراقبة على المجالات الحيوية في سلطة الدولة والقوى الانتاجية. وذلك النصر الذي يسعون لتحقيقه والنصر الذي نسعى نحن لتحقيقه يختلفان احدهما عن الاخر، ولا يجوز لنا التستر على تلك الاختلافات. وكون حقيقة ان تلك الخلافات قائمة لا يمكنها ان تقف عائقا في طريق اتحادنا على نفس المرحلة التي نتحد فيها بخصوص المسائل التي نستطيع على ضوئها تحقيق وفاق، والتي تتلاءم سواء مع مصالحنا ام مصالحهم.

ورمزا للشواخص السياسية الجديدة في مشاعة الافارقة البيض صار لقاء ممثلي المثقفين الافارقة البيض مع وفد الكونغرس الوطني الافريقي في داكار من ٩ — ١١ تموز (يوليو) ١٩٨٧ والذي نوقش اثناءه موضوع : كيف الخلاص من الاسوأ والتحضير لاقامة مجتمع ديمقراطي خال من التفرقة العنصرية.

ونتائج اللقاء قوبلت بترحاب من جانب كل من يتمنى

لجنوب افريقيا السلام. وجاء في البيان المشترك الذى كان اول وثيقة من نوعها في تاريخ جنوب افريقيا، حديث عن ضرورة القيام بلقاءات جديدة من هذا القبيل، والتزامات جميع الافارقة الجنوبيين بالعمل باسم اقامة ديمقراطية غير عنصرية في جنوب افريقيا. وتم الاعتراف بالواقع التاريخي للنضال المسلح الذى يخوضه الكونغرس الوطنى الافريقي.

وتجدر الاشارة الى ان ذلك الحدث تقبلته اغلبية الافريقيين البيض كعمل «خيانى» وطالب اليمينيون المتطرفون من الحكومة انزال عقوبات مشددة بالمرتدين، وانفسهم قاموا بحملة لمطاردة وتخويف المشاركين في لقاء داكار. وهدد المتطرفون البيض بان الموت ينتظر منظمى المباحثات مع الكونغرس الوطنى الافريقي.

للاسف لم تكن تلك مجرد تهديدات جوفاء. فقد تم في ٢٥ تموز (يوليو) العثور على جثة ايريك منتونغا (٢٥ سنة) وهو من السود المبادرين لاجراء لقاء مع المنظمات التحررية، في سيارته في منطقة بانتوستان سيسكى. لقد قتلوه بطعنة سكين في قلبه وكان مقيد اليدين والرجلين. كتبت مجلة «جين افريك» لقد مات لانه فتح قلبه للحوار.

والزعيم السابق للحزب الفيدرالى التقدمى المعارض لجنوب افريقيا فريدريك فان زيل سلابيرت الذى ترأس وفد الافارقة البيض قال بعد عودته الى جوهانسبورغ: المباحثات تقضى على الخرافات التى تتكون في عقول البعض عن البعض الاخر. فالطرف الثانى يكف عن تصديق الكاريكاتير العنصرى عن

الطرف الاول، ويرى فيه مجرد افريقي جنوبي آخر يقول: «انا من بورت ايليزابيث» او لافديل او بيترسبورغ او من اى مكان آخر. لقد استطاعت الحكومة الهام البيض بان الكونغرس الوطني الافريقي هو عصابة من الاجانب...

ويقسم سلابيرت بانه سيناضل من اجل التحولات السلمية لنظام الادارة القائم. وكل ما يمكن ان يعرقلني في ذلك هو اعتباري شخصا ممنوعا، او رميي في السجن او قتلي.

«نحن بحاجة الى مانديلا !»

صمت الحديث عن اسماء من يقف فى صفوف المعارضة فى جمهورية جنوب افريقيا لعقود كاملة من الزمن. والكثير منهم لم نعرف عنه شيئا. ومن بين الاسماء المعروفة — يحتل اسم نيلسون مانديلا مكانا خاصا. فقد اصبح هذا الانسان اسطورة وهو لا يزال على قيد الحياة، ورمزا للنضال التحررى لملايين السود. كما ونرى ابناء القارة الافريقية يرتشفون القوة والامل من اخلاصه المنقطع النظير لمثل الحرية والعدالة، ومن تضحيته بالنفس ونكران ذاته.

ومانديلا من اولئك الذين يؤمنون بفكر معين ويناضلون من اجل هدف عظيم.

عندما سيتم القضاء على نظام الفصل العنصرى ستتحدث الموسوعات وهى تتطرق الى اهم احداث الثمانينات لا عن اصلاحات ب. بوتا، بل عن شخصية نيلسون مانديلا الذى ظل قائدا لشعب جنوب افريقيا وهو خلف قضبان السجن. واغلب الظن ان بوتا اذا بقى فى التاريخ فمجرد بفضل اسيره. فحين يذكر مانديلا يتذكرون اسم سجانه.

والحاكم المنسى الذى أعلن فى محكمة ريفونى عام ١٩٦٤

قرار الحكم على مانديلا بالسجن المؤبد زائدا ٥ سنوات من حكم صادر قبل ذاك وحرمانه من استئناف قرار المحكمة، عبر عن اعتقاده بان مانديلا سرعان ما سيغمره النسيان. بيد ان الحياة حكمت بشكل مغاير: فالمتهم رقم ١، هكذا كانوا يطلقــــون على مانديـــــلا فى وثائق المحكمة حصل على مجد عالمي.

لقد نمت هيبة مانديلا مع السنوات التى قضاها وراء قضبان زنزانته. فاستفتاء الرأى العام بين واوضح شعبيته الهائلة ليس فقط وسط الافريقيين من ابناء جيله، وانما وسط الجيل الناشئ واليانع تماما، «اجيال سويتو»، الذين يعرفون شكله بالصور الفوتوغرافية القديمة. وفى عام ١٩٧٩ خاطر ج. كريوغير وزير العدلية وقتذاك واعلن ان اسم مانديلا غطاه النسيان. اما صحيفة «بوست» الترانسفالية فقد اقترحت على قرائها تعيين اسم زعيم يتمتع باكبر شعبية، وبعد اقل من اسبوع وصل الى ادارة الصحيفة ٨٦ الف رد يشير فيها اصحابها الي ان مانديلا هو الزعيم الاكبر شعبية. وفى تعليقها كتبت الصحيفة: «لم يحظ اى زعيم اسود فى التاريخ الحديث بحب الشعب كما يحظى نيلسون مانديلا. ثم ان استفتاءات الرأى العام اكدت على ان كل المجاميع السياسية بلا استثناء تعتبر كالسابق مانديلا الزعيم رقم ١. ثم ان اية محاولة لحل مشكلة بلادنا بدون مشاركته من شأنها ان تعيد السياسة المتهورة والعمياء التى نهجها يان سميث فى روديسيا الجنوبية. وكتبت صحيفة «بوست» ايضا ان «نيلسون مانديلا عملاق نما فى بوتقة

الشعب»، وتجدر الاشارة الى ان السلطات اغلقت صحيفة «بوست».

وفى ايار (مايو) ١٩٨٧ وحينما اختارت المشاعة البيضاء نوابها الى البرلمان الابيض، اعادت صحيفة «سويتان» الصادرة فى سويتا بضاحية جوهانسبورغ السوداء التى تقطنها ملايين عديدة الاستفتاء الذى اجرته صحيفة «بوست» «من تريدون أن يصبح رئيسا لجمهورية جنوب افريقيا؟» ومرة ثانية رشحت الاغلبية العظمى مانديلا لهذا المنصب.

لم يفلح ب. بوتا فى الدخول حتى فى اول عشرين اسم لهذا المنصب. ومانديلا يحترمه البيض ايضا، وان الكثير يعتبره ذلك الشخص بالذات القادر على وقف القسر والبدء بعملية تحول جنوب افريقيا السلمى الى ادارة ديمقراطية حقة. لقد قالت ايلين سوزمان التى تمثل فى البرلمان الحزب الفيدرالى التقدمى المعارض «انه الامل الاخير التى ينتظر منه حل المشكلة عن طريق المفاوضات بين السود والبيض».

ولد نيلسون روليهلاهالا مانديلا فى ترانسكى فى ١٨ تموز (يوليو) ١٩١٨، كان والده زعيما وشخصا غنيا، وتحددت حياة الصبى على الوجه التالى: مدرسة تبشيرية، كلية فورت — هيير (كانوا يقبلون فيها الافارقة)، ثم زواجه، ومواصلة عمل آبائه واجداده، بيد ان خطة ابيه لم ترق له، فقد رأى مستقبله فى امور اخرى.

ومن دفتر مذكراته علمنا ان انجذابه للسياسة بدأ من سن مبكرة.

كتب مانديلا «عادة ما حدث الكبار الاطفال عن تلك الازمنة حينما عاش شعبنا بأمن وسلام تحت ادارة ديمقراطية من جانب زعمائه، وتنقل بحرية فى كل ارجاء البلاد بدون اية تحديدات. البلاد وقتذاك كانت ملكا لنا، وكانت ملكية متساوية لنا. كنا نملك الارض والغابات والانهار. واستخرجنا المعادن وغيرها من الثروات الطبيعية من باطن ارض بلادنا الرائعة. كنا نملك حكومتنا الخاصة وجيشنا الخاص وتجارتنا الخاصة واعمالنا التجارية. بعد ذلك جاؤوا البيض، وتحطم العالم الى اجزاء. وحمل الشعب السلاح. وبدأ نضال من اجل التحرر مستمر حتى الان. لقد اقسمت على انى سأخدم شعبى واسهم بقسطى المتواضع فى النضال العام من اجل الحرية».

ولم يكن قد بلغ العاشرة من عمره حينما توفى والده، عند ذلك صار يرعاه كليا ابن عمه زعيم التيمبوليند، والذى صار مانديلا ابنا له حسب العادات المتبعة هناك.

واوامر الوالد نفذها نيلسون غير كاملة، فقد دخل فورت - هيير لكنه لم يبق هناك فترة طويلة، حيث فصلوه بسبب تنظيمه مقاطعة طلابية. وفصل معه ايضا طالب آخر هو اوليفر تامبو الذى ومنذ ذلك الحين صار نصيرا دائما لمانديلا فى النضال التحررى ومن ثم رئيسا للكونغرس الوطنى الافريقى لجمهورية جنوب افريقيا. ومنذ عام ١٩٤٤ صار مانديلا عضوا فى الكونغرس الوطنى الافريقى.

ولج مانديلا النضال السياسى فجأة. بيد انه ومنذ البداية بانت واضحة مساعيه الحماسية التى اذهلت الجميع وتصميمه

لتحقيق الهدف المنشود: الا وهو الحصول على الحرية لشعبه.

وسرعان ما تدرج مانديلا فى التشكيلة القيادية للكونغرس الوطني الافريقي. وسوية مع اوليفر تامبو ترأس الجناح الشبابى للكونغرس الوطنى الافريقى الذى صار المبادر لقيام الاحتجاجات الجماهيرية ضد الفصل العنصرى.

وفى عام ١٩٥٢ دعا الكونغرس الوطنى الافريقى الافريقيين للقيام بحملة عصيان مدني. وكانت تلك المرحلة الاخيرة لمقاومة التفرقة العنصرية بشكل خال من العنف والمحاولة الاخيرة لاقناع الاقلية البيضاء. كانت الفكرة بسيطة، وكانت تبدو ساذجة للوهلة الاولى: كمنت فى الحد من نشاط الفصل العنصرى، وشل نظام «المستوى الاسفل». وكان على الافريقيين خرق التحديدات الصغيرة للفصل العنصرى: تجاهل الرقع التى كتب عليها «للبيض فقط»، حرق الهويات الشخصية التى منحت للسود فقط و... الخ. وعدم ابداء مقاومة اثناء الاعتقال، وعدم دفع غرامة والالحاح على دخول السجن.

خلقت حملة العصيان انطباعا عريضا لدى الاقلية الحاكمة. وطالب الافارقة البيض الحكومة باتخاذ اجراءات قاسية، وسرعان ما استجابت الحكومة لذلك باصدارها قانونا جديدا: غرامة مقدارها ٣٠٠ جنية استرلينى، وسجن لمدة ٣ سنوات و ١٠ جلدات بالسوط. والغيت قرائن البراءة: على المخالف ان يثبت بنفسه ان عمله لم يكن احتجاجا ضد النظام.

لقد اختنقت الحملة وسط التنكيل، لكنها بينت للعالم كله الوجه الحقيقى لنظام الفصل العنصرى (الابارثيد).

وتحدى مانديلا بعلنية النظم الجديدة وكان عليه ان يتحمل العقاب. لقد جذبت ندارة الزعيم الشاب اهتمام ليس الاصدقاء وحسب. فقد فهمت السلطات ومنذ البداية ان خصما عنيدا يواجههم، وحاولت بكل طاقاتها اجباره على السكوت. وفي عام ١٩٥٢ حكم عليه بالسجن لمدة ٩ شهور مع وقف التنفيذ لتنظيمه حملة عصيان. وفي ١١ كانون اول (ديسمبر) ١٩٥٢ جردوه من حقوقه، وحددوا تحركه وسمحوا له الاقامة في جوهانسبورغ فقط. وفي ايلول (سبتمبر) ١٩٥٣ مددوا فترة تجريده من حقوقه. تجدر الاشارة الى انهم وقتذاك طلبوا من مانديلا الانتقال من الكونغرس الوطني الافريقي ووقف نشاطه السياسي. ويتذكر مانديلا في مذكراته تلك الفترة ويشير: «جردوني من حقوقي وعزلوني عن رفاقي. كان عملاء الشرطة السرية يلاحقونني في كل مكان... وجعل القانون مني مجرما ليس بسبب تصرفاتي، بل بسبب عقيدتي».

وحياة «السجن» دامت بالنسبة لمانديلا ٩ سنوات بكاملها. وهذه الفترة القصيرة قياسا بحياة الحرية في جوهانسبورغ حيث فتح مع اوليفر تامبو مكتبا للمحاماة ساعده على رؤية عيوب نظام الفصل العنصري بشكل اوضح. كان يأتي اليه طلبا للنصح والمساعدة الفلاحون المطرودون من اراضيهم واراضي اجدادهم، والعاطلون الذين طردوهم قسرا من المدن. والاسر التي لم تستطع العيش سوية لعدم وجود رخصة للعيش في المدينة لدى احد الزوجين، ومئات ومئات من المساكين.

دعا مانديلا في تلك السنوات الى «ان كل افريقي مفكر

يظل طيلة حياته في صراع مستمر بين ضميره من جهة وبين القانون من جهة اخرى... هذا القانون الذى نعتبر به من وجهـــة نظرنا فاسدا وغيـــر عادل ولا يطاق... علينا ان نحتج ضده وعلينا ان نناضـــل ضده وعلينا ان نحاول تغييره».

وعام ١٩٦٠ دخل التاريخ ليس كعام افريقيا. ففى تلك السنة رفرفت راية الحرية على مناطق شاسعة من افريقيا وتحرر العديد من البلدان الافريقية من الاستعمار والتبعية. وفى جمهورية جنوب افريقيا ادخلت قوانين تفرقة عنصرية جديدة. وصار التنكيل اقسى واشد. وصارت ضحية قمة التنكيل والقسر المسيرة السلمية في شاربيفيل عندما فتحت الشرطة النار على المشاركين فيها وقتلت ٦٩ منهم وجرحت ١٧٦ آخرين.

بعد ذلك الحدث مباشرة اعلنت الحكومة حالة الطوارئ. وحظر عمل الكونغرس الوطنى الافريقى، واعلن ان القانون يعاقب عن اية مقاومة لسياسة الفصل العنصرى. وتأجج وسط السكان جنون معاد للشيوعية، وجرى تخريب بلدات السود، وعبئت قوات عسكرية لمواجهة التظاهرات السلمية. واستمرت الاعتقالات التى قامت بها الشرطة ضد الافريقيين اسابيع.

لحين ذلك الوقت كانت لدى الكونغرس الوطنى الإفريقى خبرة اربعين عاما تقريبا من المقاومة السلمية. بيد ان الاساليب السلمية للنضال لم تعد قادرة على وقف الفصل العنصرى. فقد شملت العنصرية البلاد برمتها. وسحقت السلطة بجور ودون رحمة اى شكل من اشكال المعارضة. فالزعيم البرت لوتولى، الحاصل على جائزة نوبل للسلام، احد قادة الكونغرس

الوطني الافريقي عبر عن خيبة امله العميقة بنتائج التكتيك القديم: «من يستطيع نكران كوني قد ضيعت ٣٠ سنة من عمري في انتظار الامل والطرق بتحمل وصبر وتواضع ودون ملل او كلل على باب موصدة؟ وشاهدت السنوات الثلاثين تلك اعداد هائلة من القوانين التي قلصت وحددت حقوقنا وتطورنا، اما اليوم فقد وصلنا الى مرحلة لم يعد معها عندنا اية حقوق تذكر».

وفي ٣٠ ايار (مايو) ١٩٦١ اعلن مانديلا لصحفيين بريطانيين: «لو ان هدف الحكومة يكمن في نسف نضالنا السلمي بفظاظة، فعلينا اعادة النظر في اسلوبنا... وقياسا على مجريات الامور، يتوجب علينا وقف نهج سياستنا السلمية».

بعد مرور نصف سنة ظهرت على صفحات جرائد افريقيا الجنوبية انباء هجمات على المباني الحكومية والاهداف الاقتصادية. واعلنت منظمة «اومكونتي في سيزفي» (رمح الامة) غير المعروفة لذلك الحين مسؤوليتها عن تلك الاعمال.

لقد ترأس نيلسون مانديلا الفصائل القتالية، ومن ثم بدأ العمل السري.

وانتهى امد النضال السلمي بذنب الحكومة كليا، التي كانت حتى ذلك الحين واثقة من القوة الخارقة للقلعة البيضاء، ولم يشك في سحق اية تحركات من جانب الافارقة السود.

ولم تكن بريتوريا قد راودها الحدس من ان الاطلاقات في شاربيفيل قد زعزعت كتلة الفصل العنصري، وان انحدارها متجه نحو الهاوية لا محالة رغم عدم ملاحظة ذلك من قبل اشد المبصرين...

كتب مانديلا بعد انتقاله الى العمل السرى عام ١٩٦١ :
«بالنسبة لى اتخذت قرارا بعدم مغادرة افريقيا الجنوبية ولم استسلم. فالحرية تتحقق عبر الصعاب والتضحيات والاعمال القتالية فقط. وحياتى هى للنضال وسأناضل من اجل الحرية الى آخر يوم في حياتى».

واول الاعمال التخريبية التي قام بها مناضلوا فصائل مانديلا تسببت في قيام موجة من التنكيل القاسى.

بدأت حملة تفتيش على مانديلا. وسنحت له الفرصة ان يفلت من قبضة الشرطة لمدة سنتين (تتذكر فينى مانديلا زوجته قائلة بأنه كان يتنكر بفطنة وكأنه فنان محترف لدرجة حتى هى لم تكن تتعرف على شكله). وفى تلك الفترة سافر سرا الى خارج البلاد وجاب عددا من الدول الافريقية والاوربية مقنعا قادتها على تقديم التأييد السياسى والمالى للمناضلين من اجل الحرية.

وطلباته تلك ظلت في الغرب دون رد فعلي عليها.

وفى ٥ آب (اغسطس) ١٩٦٢ وقع مانديلا فى مصيدة نصبت له بتخطيط من وكالة المخابرات المركزية الامريكية، وهذا ما صرحت به في ١٧ تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٦ صحيفة «انترناشنال هيرالد تريبيون» الامريكية.

فى تلك الفترة بالذات بدأ تعاون وطيد بين وكالة المخابرات المركزية والشرطة السرية فى افريقيا الجنوبية. ومن ثم قدمت وكالة المخابرات المركزية مساعدة كبيرة فى تنظيم «بوس» السيئ الصيت وهو مكتب امن الدولة لجمهورية جنوب

افريقيا، والذى قام بمئات الاستفزازات ضد المشاركين فى الحركة المعادية للعنصرية سواء داخل جمهورية جنوب افريقيا ام خارجها.

وقد حكمت المحكمة على مانديلا بالسجن لمدة ٥ سنوات اعمالا شاقة فى جزيرة روبين — ارهب سجن فى جمهورية جنوب افريقيا.

وفى تموز (يوليو) من السنة القادمة اعتقلت الشرطة زعماء الكونغرس الوطنـــــى الافريقى بكامــــل تعدادهم تقريبا وذلك فى منطقة ريفونى بالقرب من جوهانسبورغ. ثم ان الوثائق التى عثر عليها هناك جعلتهم يستأنفون محاكمة مانديلا من جديد كمتهم اساسى فى تلك القضية.

كان مانديلا وهو ينتظر صدور الحكم عليه (وقد توقع الكثير انه حكما بالاعدام)، يواصل دراسته بالمراسلة فى كلية الحقوق فى جامعة لندن. كان مانديلا يعد فى ذهنه ماذا سيقوله بعد ادلاء الحكم عليه: «اذا كنتم تتوقعون انكم بحكمكم علي بالاعدام ستقضون على الحركة التحررية فانكم على خطأ كبير: اننى مستعد للموت لاننى اعلم ان موتى سيلهم شعبى فى نضاله».

وصدر الحكم على جميع المتهمين: نيلسون مانديلا، وولتر سيسول، وهوفان مبيكى، ورايموند مخلابا، واحمد كاترادا، والياس موتوسواليدى، واندرى ملانديني، ودينيس هولدبيرغ بالسجن المؤبد.

وجزيرة روبين يمكن مشاهدتها بالعين المجردة من الساحل ومن نوافذ فنادق كيب‌تاون. وبنايات هذه المدينة الشامخة

وناطحات السحاب فيها يمكن مشاهدتها في يوم صحو هي الاخرى من تلك الجزيرة الحالكة التي تحولت ومنذ القرن السابع عشر الى سجن رهيب.

وجزيرة روبين معروفة ليس كسجن منيع بقدر ما هي معروفة كمكان احتجز فيه منذ عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٨٢ المحكومين في محاكمة ريفوني من قادة وزعماء النضال التحرري الذى يخوضه شعب جنوب افريقيا.

من ثم نقلوهم الى سجن في القارة. وكان نصيب مانديلا بولسمور وهو سجن ذو نظام مشدد يبعد مسافة ١٦ كيلومترا عن كيب تاون.

وحسب ما ترويه زوجته فيني، لم يعجب السلطات كون نيلسون ورفاقه نظموا دورات لتعليم القراءة والكتابة للسجناء الشباب، وحيث صاروا يسمون روبين «جامعة مانديلا» وخرج من السجن شباب لم يكونوا قد انهوا دراستهم الثانوية، خرجوا «بدبلوم التعليم العالي» حصلوا عليه بمساعدة مانديلا. بيد ان السبب الرئيسي والاساس لنقله من الجزيرة المذكورة هو كون بقائه في الجزيرة ليس من المصلحة السياسية للسلطات: فشعبية تنامت بسرعة، وفي نفس الوقت تصاعدت وقويت حركة دولية من اجل اطلاق سراحه.

وفي بولسمور صاروا يسمحون للصحفيين الاجانب والشخصيات السياسية زيارة مانديلا. واملت الحكومة في انها وبذلك ستضعف موجة الانتقاد التي تتعرض لها. الا ان النتيجة كانت عكسية. فبعد روايات شهداء العيان الذين تعجبوا جميعهم

وهم يغادرون زنزانته فى الطابق الثالث من جناح السجن المخصص «للمجرمين الخطرين» من جرأته وثقته الثابتة بالنصر، صارت المطالبة باطلاق سراح مانديلا اهدر صوتا.

لقد اعلن اعضاء مجموعة من الشخصيات المرموقة زارت مانديلا عام ١٩٨٦ «كانت تنطلق منه سلطة، وحظى باحترام الجميع وحتى سجانيه. سلطته تنتشر بوضوح على الحركة القومية كلها رغم انه كان يكرر بانه لا يستطيع التحدث باسم زملائه فى الكونغرس الوطنى الافريقى، وان وجهة نظره تمثل وجهة نظر جماعية لكل الكونغرس الوطنى الافريقى... وخلال حديثنا معه كان يؤكد بعزم على سعيه للتوفيق بين العناصر. وتحدث عن نفسه كنصير صلب للقومية الافريقية الجنوبية، لكنه اضاف ان القوميين الافريقيين الجنوبيين يمكن ان تلقاهم وسط الناس من مختلف الوان البشرة — وسط البيض والملونين والهنود...».

واعلن اعضاء تلك المجموعة: لقد اقتنعنا من ان مانديلا هو زعيم يتمتع بشعبية وبقابلية توحيد الناس وقيادتهم وتؤكد ملاحظاتنا الخاصة واستفتاءاتنا للرأى العام الافريقى الجنوبى على ان اغلبية السكان يعتبرون مانديلا زعيما لافريقيا الجنوبية المقبلة الخالية من العنصرية.

والمحامى الامريكى البروفيسور صاموئيل ديش الذى قابل مانديلا فى كانون ثانى (يناير) عام ١٩٨٥ يقول: «ذلك الانسان النحيف الطويل القامة الجميل يبدو وكأنه اصغر بكثير من عمره البالغ ٦٦ عاما. كان يبدو نشيطا وصحيح البنية. كان

هادئ السلوك يوحيك بالثقة وكرامة النفس وهو فى ذلك الوضع فى سجنه الحالك. وفى واقع الحال وعلى مدى فترة لقائنا كان يغمرنى شعور بان محدثى ليس مجرد زعيم انصار من تجمع راديكالى، بل رئيس دولة.

كما وصار لى واضحا تماما ان سلطات السجن يعاملون مانديلا ليس كسجين عادى. ثم ان الشخصية الرفيعة التى حضرت طيلة لقائى معه الذى دام ساعتين ونصف الساعة، اضافة الى الحراس المرافقين لى نفذوا اوامر مانديلا وكأنه مديرهم...

وقضبان الزنزانة تضاعف جاذبية شخصية وافكار انسان محكوم عليه بالسجن جراء قضية عادلة. ويصبح هذا الرجل بطلا معذبا، ومع ذلك تعجز اية سلطة من الوقوف ضد ذلك. يمكننا ان نتذكر ما سببه من متاعب الانجليز سجن المهاتما غاندى وبخاصة خلال الايام الاخيرة لسيطرة انجلترة على هذه البلاد. وعبر النضال التحررى مر بـ «جامعات السجون» هذه العديد من القادة الوطنيين. فشعبية جومو كينياتا خلال السنتين الاخيرتين اللتين قضاهما فى السجن ارتفعت لدرجة ان الناس كانوا يقدمون من مختلف ارجاء كينيا ليقفوا بالقرب من سجنه. وسنين عديدة قضاها فى سجون روديسيا روبرت موغابى وجوشوا نكوما. وفى كل بلد افريقى تقريبا حجز الاستعمار زعماء الشعب المقبلين فى زنزانات سجونه المقيتة.

والسلطات حين رمت بمانديلا فى السجن وجدت نفسها فى وضع حرج. فمن جهة صارت المطالبات باطلاق سراحه شرطا

ثابتا للرأى العام العالمى ولكل دول العالم ومن بينها الشركاء الاساسيين التجاريين والاقتصاديين لجمهورية جنوب افريقيا. ثم ان تجاهل تلك المطالب يمكن ان يؤدى الى الاساءة الى سمعة هذه البلاد فى العالم والتى هى سيئة من دون ذلك. ومن جهة اخرى يمكن اطلاق سراحه او تغيير الحكم الصادر ضده اعترافا بوقوع خطأ قانونى حين اقرار واصدار الحكم ضده — ولكان ذلك دليلا آخر على بطلان النظام كله. مع ذلك يمكن لمثل هذا القرار اذا ما حدث ان يؤثر تأثيرا لا اخلاقيا على البيض، ولادى الى نشاط المتطرفين اليمينيين. ثم وتوجب على السجانين التفكير دوما بان مانديلا ليس شابا واذا ما حدث معه شيء وهو داخل الزنزانة فالذنب كل الذنب سيقع وبطبيعة الحال على الحكومة. واذا ما اخذنا بالاعتبار شعبية هذا الرجل، يمكننا التنبؤ بالنتائج المتوقعة.

اقترحوا على مانديلا فى عام ١٩٦٩ صفقة اقترحوا عليه فيها اطلاق سراحه مقابل تخليه علنا عن استخدام القوة كوسيلة للنضال السياسى والانتقال الى بانتوستان ترانسكى (اى خارج حدود جمهورية جنوب افريقيا «البيضاء»)، كما ووعدوه بمنصب فى «حكومة» ترانسكى.

تذكر «ماك» ماخاراج، رفيق مانديلا فى النضال والسجن والذى قضى فى سجن روبين ١٢ عاما، ان مانديلا رفض رفضا قاطعا تلك الصفقة، وقال: الافضل البقاء فى السجن من ان اكون خائنا.

والاقتراحات التى اقترحوها عليه كانت سخيفة ومتشابهة

وكأن ماكنة نظام الفصل العنصرى (الابارثيد) تمت برمجتها ببرنامج واحد يكرر ما يقوله مهما كان الرد رفضا. وفى عام ١٩٨٥ وبعد مثل هذه المحاولات المملة والمتكررة بعث مانديلا برسالة مكشوفة دعا فيها الافارقة الى مواصلة النضال وعدم الاكتراث بدعاية بريتوريا التى تؤكد وتعيد ان مانديلا «على وشك» القبول بشروط بوتا رئيس الجمهورية.

اليكم اسطرا من تلك الرسالة التى قرأتها فى ١٠ شباط (فبراير) ١٩٨٥ في ملعب رياضى فى سويتا ابنته زينزى:

«اتعجب لتلك الشروط التى وضعتها الحكومة. انا بطبيعتى لا اميل الى العنف... لقد بدأنا النضال المسلح فقط عندما لم تنفع جميع وسائل المقاومة الاخرى. ليثبت بوتا أنه يختلف عن مالان وستريدوم وفيرفورد. ليتخلى هو نفسه عن العنف. دعه يعلن هو نفسه انه الغى الفصل العنصرى. دعه يرفع المنع المفروض على منظمة الشعب — الكونغرس الوطنى الافريقى. دعه يطلق سراح جميع المسجونين والمحرومين من حقوقهم او المبعدين بسبب معارضتهم للفصل العنصرى. دعه يضمن حرية النشاط السياسى لكى يتمكن الشعب تقرير من يحكمه.

بدورى اقيم عاليا حريتى، بيد ان حريتكم اعز من حريتى... فحريتى وحريتكم لا تنفصلان عن بعضهما. اوعدكم باننى ساعود».

هل يمكن تبرير العنف ؟

مرة قال مارتن لوثر كينغ انه يحلم بحلول زمن «حينما يتمكن ابناء العبيد القدامى وابناء تجار العبيد القدامى الجلوس حول طاولة اخوة واحدة».

وفي جنوب افريقيا كان من الممكن تحقيق هذه الامكانية لاكثر من مرة لنتذكر بطل رواية آلان بيتون اقدم كاتب جنوبي افريقي المسماة «ابكى يا بلادى العزيزة» (الرواية كتبت عام ١٩٤٨ واعيد طبعها في العديد من بلدان العالم). والبطل تيوفيلوس مسيمانغا قس اسود قال: «ارى املا واحدا ووحيدا في بلادنا، حينما يسعى البيض والسود لا الى التعطش للسلطة والنقود، وانما الى الاهتمام برفاهية بلادهم والاتحاد من اجل هذا الهدف»، لكنه اضاف، «يعيش في قلبي رعب كبير وخوف من انهم وحينما سيقررون العيش معنا في حب ومودة، سيجدوننا قد صرنا نكرههم».

ان دعوات تيوفيلوس مسيمانغا الى عدم استخدام العنف لاقرار العدالة ربما يرفضها حاليا سكان ماميلودا ولانغ وسويتا. لقد ارهق دم ودموع غزيرة ابان الاعوام الاربعين التى انصرمت. وقساوسة الافارقة السود المعاصرين يتحدثون اليوم بلغة مغايرة

تماما. فهم لا يعذبهم الشك فى اختيار الطريق الصائب للقضاء على النظام البربرى. وفى هذه اللحظة الانتقالية من التاريخ ظهرت شخصية القس والوطنى الحقيقى الداعى لاستخدام السلاح والذى يبرر العنف فى سبيل اقرار الخير.

يقول الاسقف ديسموند توتو الحائز على جائزة نوبل للسلام، رئيس الكنيسة الانجليكية لجنوب افريقيا: «نحن نعيش تحت ظل قوانين عنصرية هى تجسيد للشر وفاسدة وتتعارض كليا مع القيم المسيحية. وهى تهجير قسرى للعمل يؤدى بعمد الى تفريق شمل اسر الافريقيين».

ما هو الرد على ذلك العنف؟ لدى الاسقف ديسموند رد واحد لا شك فيه ولا مراوغة: القوة وحدها تستطيع اجبار العنصريين على تقديم تنازلات. وحينما يقتلون رجالنا وكأنهم ذباب وليسوا بشرا، لا يوجد امامنا خيار آخر.

والاسقف لا يخفى قلقه على غد جنوب افريقيا.

نحن نعد لخلفنا ارثا مرعبا. انظروا ما نفعله مع اطفالنا، وما نفعله مع بلادنا الرائعة؟ ليس هناك من شعب آخر يسمح ان يسفك دمه مثلما يسفك دمنا.

يقولون اليوم فى سويتا «لا توجد سن معينة للانصار» فوسط من هب من المناضلين النشطاء فى سبيل الحرية من فى سن الثامنة. ويؤكد موتوبى موتلواتسى وهو كاتب افريقى جنوبى ان حتى طفلته البالغة من العمر ٣ سنوات تعيش الثورة فى داخلها، فهى من الصباح حتى المساء تغنى مع اصحابها الاطفال: «نريد مانديلا، نريد مانديلا».

ويتذكر موتلواتسي، مرة كنت استمع خلسة لحديث دار بين زوجتي وطفلتي الملهمة بالثورة:

ماما هل تشترين لي...

ماذا ؟

مسدسا ؟

لعب المسدسات للاولاد.

كلا ماما. اريد ان ارسى «فرسان النهر» (هكذا يسمون هناك السيارات المدرعة التي تستخدم في تفريق التظاهرات).

وصبيان اليوم في الضواحي السوداء هم اتراب الانتفاضة في سويتا عام ١٩٧٦. وهم بالحقيقة لا يعرفون طعم الحياة السلمية، فلم تكن لديهم طفولة.

فالعالم تفتح في نظرهم خاليا من الوانه الزاهية، بل ملأت اسماعهم اصوات جزم الجنود والشرطة وانوفهم روائح الحرائق والدم، وحيث يلعلع ازيز الرصاص وصراخ من ينادي طالبا المساعدة. ومن بلغ العاشرة من عمره الف الضرب المبرح والسجن والتعذيب وشاهد موت اقرانه. وفي الغيتو التي يعيش فيها السود في جنوب افريقيا يطرحون اسئلة ويحلون مشاكل يعجز عن التفكير فيها وحلها الكبار في المجتمعات «الطبيعية» السليمة.

وباتاندفا البالغ من العمر ١٥ سنة من سويتا كتب في موضوع انشاء مدرسي: «الوضع في مدينتنا مروع لدرجة يطرح المرء علـــــى نفسه سؤالا: «لماذا خلـــــق الـــــرب البشر؟»... كل يوم يحرسنا الجنود كما لو كنا مجرمين. واولئك الجنود

يقولون انهم اصدقاءنا، لكننى اعتبرهم اعدائى». اما شويتو البالغ من العمر ١٣ سنة فكتب: «ماذا يجرى فى جنوب افريقيا؟ يقتلون العديد من الافارقة، والبوريون يقتلون السود بكل سهولة وبرودة دم. والجيش لا يعرف غير قتل واعتقال الافارقة. الا ان ذلك كله حتى ولو استمر فسنحصل نحن على الحرية عاجلا ام آجلا».

كيف يرى المستقبل اولئك الاطفال الذين جرح ارواحهم الفصل العنصرى؟ مواغى (٨ سنوات) كتب بعجلة دون الالتفات الى اصول التنقيط فى الكتابة: «اريد عندما اكبر ان تكون لى زوجة وطفلان ولد وبنت وبيت كبير، وكلبان، وحرية». اليكم كلمات بوتالى (١٢ سنة): «الحياة كفراشة مريضة. وكثيرنا لا يريد مثل هذه الحياة».

ماذا فعلته المأساة والمصيبة فى قلوب الاطفال بحيث جعلتهم يفكرون بهذه الطريقة؟ وهل يفكرون فى بريتوريا أى نبت تعطيه بذور الكراهة التى يزرعها جنود الفصل العنصرى؟ فبوتالى وباتاندفا ومواغى هم بالذات من سيقود جنوب افريقيا الى القرن الحادى والعشرين.

والافارقة حاولوا لمرات عديدة مد يد المصافحة للبيض مقترحين نسيان الماضى وسوية معهم فتح فصل جديد فى تاريخ جمهورية جنوب افريقيا.

وفى عام ١٩٥٥ وضع ٣ آلاف مندوب للكونغرس الوطنى الافريقى فى اجتماع لهم ميثاق الحرية، وهو برنامج سياسى يدعو الى اقامة مجتمع ديمقراطى خال من العنصرية فى جنوب

2-238

افريقيا. كلمات «جنوب افريقيا يجب ان تعود لكل من يعيش فيها» سمعها العالم كله ما عدا المسؤولين فى جنوب افريقيا الذين يصمون آذانهم عن سماع ذلك النداء.

ونيلسون مانديلا ومنذ عام ١٩٦١ طرح فكرة وصل مغزاها الى البيض منذ فترة قريبة. وفى العريضة الى رئيس الوزراء فيرفورد التى رفعتها ١٤٥ منظمة اجتماعية مختلفة اقترح عقد اجتماع وطنى تناقش فيه بعقلانية وهدوء المشاكل القومية وتوضع خلاله حلول لضمان الدفاع عن مصالح جميع فئات السكان، وكذلك دستور ديمقراطـــــى جديد خال مـــن العنصرية. وكان رد السلطات على ذلك الاقتـــراح مزيد من التنكيل.

وبالمناسبة، يسرق الرئيس بوتا الذى يقترح اليوم الدعوة الى عقد ما يشبه ذلك الاجتماع فكرة مانديلا، ويحرف فى الوقت ذاته فحواها. ويكمن هدفه ليس فى جمع ممثلى الشعب الحقيقيين، بل صنائع النظام المطيعين الذين يقبلون بشروط الاقلية البيضاء.

ثم ان نيلسون مانديلا قام بمحاولة ثانية للدعوة الى الاستنارة بما يمليه عقل وضمير زعماء «القبيلة البيضاء»، ومع ذلك سمعت بمحاولته هذه ومن جديد البلاد كلها بالرغم من تصريحه بها من على كرسى الاتهام وحيث كان يهدده حكم بالاعدام بتهمة مزورة هى «الخيانة العظمى». وفكرة مانديلا التى اطلقها منذ ربع قرن مضى لم تفقد حيويتها حتى اليوم الحاضر.

«نريد قبل كل شيء حقوقا سياسية متساوية، لان عدم

اهليتنا بدونها ستستمر. اعرف ان هذا يعتبره البيض ثوريا، لان الافارقة يشكلون في هذه الحالة اكثرية الناخبين، لذلك نشاهد ان الابيض يخاف الديمقراطية.

لكننا يجب الا نسمح لكي يقطع ذلك الخوف الطريق المؤدى الى الحل الوحيد الذى يضمن التناسق العنصرى والحرية للجميع. وليس من الصحيح ان منح الجميع حق الانتخابات يؤدى الى السيطرة العنصرية (للافارقة). ان التوزيع السياسى القائم على لون البشرة يحمل طابعا مصطنعا، واذا ما اختفى فستختفى سيطرة عنصر على العنصر الاخر. والكونغرس الوطنى الافريقى صرف نصف قرن للنضال ضد العنصرية. واذا ما حقق النصر فسوف لن يغير هذه السياسة».

والكلمات التى انهى نيلسون مانديلا خطابه بها عادة ما يكررونها حتى اليوم الحاضر:

«لقد ناضلت ضد سيطرة البيض وناضلت ضد سيطرة السود. وغايتى هى مجتمع ديمقراطى حر حيث يعيش الجميع بود ومحبة ويتمتعون بامكانيات متساوية. وآمل ان اعيش حتى تتحقق غايتى. وعند الحاجة فاننى مستعد لتقديم حياتى قربانا من اجلها».

لكن جنوب افريقيا البيضاء لم ترغب وتتذاك النظر فى اعين جنوب افريقيا السوداء، ولم تحاول فهمها وتوقع نتائج رفضها ذاك. والحقوا بمانديلا ورفاقه تهمة شيوعيين مستعدين للقيام «بابشع الجرائم ضد البيض». وتجدر الاشارة الى ان خرافة «ارهاب» مانديلا لا تزال حية حتى اليوم. ويكررون

الحديث عنها كلما يدور الحديث عن مسألة اطلاق سراحه. «فهو الذي اراد الاطاحة بالحكومة الشرعية، ورمي جميع البيض في البحر» — هذا ما يتبجحون به في بريتوريا عادة.

في الدوائر الليبرالية لجمهورية جنوب افريقيا صاروا في الاونة الاخيرة يتحدثون عن الاسراع في اطلاق سراح مانديلا، لان الجيل القادم من الثوريين اقل ميلا للمفاوضات ويفضل الحديث «بلغة البندقية».

لقد اكد مانديلا على الدوام ان النضال المسلح هو مجرد احد اساليب النضال الرامي ليس الى قتل افراد معينين، بل الى تهديم المشاريع المرتبطة بالحرب وبماكينة الفصل العنصرى الاقتصادية. واعلن في قاعة المحكمة: «انا لا ارفض كوني عمدت الى الاعمال التخريبية، الا ان نياتي تلك لم تحمل طابعا طائشا، ولم تكن مشروطة باعمال عنف. ونياتي كانت نتيجة تقييم واع للوضع السياسي، والاستبداد الذي قام بعد سنوات عديدة، واستغلال وظلم البيض لشعبي. اولا. اعتبرنا ان العنف من جانب الشعب الافريقي اصبح حتميا نتيجة لسياسة الحكومة. ولولا سيطرتنا الشديدة على شعبنا، لاستعر الارهاب والعداوة بين العناصر في بلادنا لدرجة لم تتسبب بمثلها حتى الحرب. وثانيا، اعتبرنا ان الشعب الافريقي لا يملك امكانية اخرى للانتصار في النضال ضد سيطرة البيض عدا العنف. وكل الاشكال العلنية للمعارضة منعت قانونيا، ولم يبق امامنا سوى التسليم بحالة النقص التي عاشوها أو العصيان على الحكومة. واخترنا العصيان على القوانين. في البداية

خرقنا القانون بدون استخدام العنف. وحينما منعوا هذا الشكل من نضالنا، وصارت الحكومة تستخدم القوة لخنق المقاومة ضد سياستها، اجبرنا على الرد على القوة بالقوة. بيد ان القوة التي قررنا استخدامها لم تكن ارهابا قط».

نذكر ان الكونغرس الوطني الافريقي كان وعلى مدى ٥٠ عاما يمنع الشعب من استخدام العنف. لكنه وبعد اعمال الرمي بالرصاص التي وقعت في شاربفيل عام ١٩٦١، بدأت الثقة تضمحل تجاه مثل تلك السياسة، وحصلت فكرة الارهاب على اعداد متزايدة من انصارها. ولحين ذلك الوقت تشكلت وبشكل عفوي في المدن تجمعات ليست كبيرة استعدت للقيام بأعمال ارهابية سواء ضد البيض ام الافريقيين. ومثل هذا التطور للاحداث هدد بجنوح النضال الذي كان يجب ان يقوم ضد الحكومة الى منعطف ضيق ما بين الجماعات المتناحرة التي عجزت عن تحقيق اى شيء عدا تقديم ضحايا وحدوث انشقاقات لا معنى لها. والكونغرس الوطني الافريقي عمل كل شيء في سبيل وقف مثل تلك النزعات. واختار، على ما يبدو، الطريق الممكن الوحيد، الا وهو سيطرته على الاعمال النشيطة ضد الحكومة، والحد بشكل دقيق من دائرة الاهداف التي تتعرض للهجوم، ورفض الارهاب كليا ضد بعض الناس المعينين.

صرح مانديلا: «لم يكن من السهل علينا إتخاذ مثل ذلك القرار. وفقط حينما فشلت جميع الوسائل، وحينما اغلقت امامنا جميع قنوات الاحتجاج السلمي، قررنا اللجوء الى الاشكال

القسرية للنضال السياسي، واقامة «اومكونتو في سيزفي».

وجاء في بيان «اومكونتو» ان مبدأ هذه المنظمة هو «النضال من اجل التحرر دون اراقة دماء».

وهدف التاكتيك الجديد للكونغرس الوطني الافريقي هو الحاق الضرر باقتصاد الدولة العنصرية وملحقاته، وتهديد مصير اصحاب الودائع الاجنبية في رأس مال تلك الدولة، واجبارهم على وقف علاقاتهم مع جمهورية جنوب افريقيا.

واعضاء «اومكونتو» ولجوا هذه العملية دون سلاح، وحذروا الاخرين كي تتم العملية تلك من دون جرحى او قتلى.

وحتى الوقائع هذه تدحض بشكل مقنع ما يقال عن ميل الكونغرس الوطني الافريقي للارهاب. وبخاصة في تلك السنوات، عندما كانت لا تزال عظيمة لدى الافريقيين احتياطات الارادة الخيرة لتسوية جميع القضايا المتنازع عليها تسوية سلمية. كان محقا مانديلا حينما رأى في العنف المتزايد من جانب السلطات مصدرا للاجراءات المضادة، ونضيف ان العنف من جانب المظلومين طبيعي تماما وله ما يبرره. فكل شعب له الحق في الدفاع عن نفسه، وفي مقاومة الارهاب. والانظمة المستبدة ومهما بدت قوية تحتفظ باقل قدر من احتياط القوة والقدرة مما يتصورون. فهي يمكن ان تقهر شعبها والشعوب الاخرى واحيانا لفترة طويلة، بيد انه وفي جوهر مثل هذه الانظمة مدون سقوطها الحتمي، وذلك نتيجة لانتفاضة المسحوقين او نتيجة لتهدمها ذاتيا جراء الانقسامات الداخلية التي تحدث فيها، او لاسباب اخرى.

ومنذ الستينات بدأ نهوض تدريجي متصاعد للحركة التحررية، وتعزز الوعي الذاتي السياسي للجماهير، وظهور منظمات جديدة معادية للعنصرية كان نشاطها علنيا. والضربات التي انزلت بالنظام اضحت اكثر قوة ودقة. وبقي الكونغرس الوطني الافريقي كما هو الحال في السابق واحدا من اهم قوى الحركة المذكورة، حيث كانت سمعته عالية جدا.

طبيعي تماما كان وقوع عدد من الانتفاضات العفوية ضد السلطات في الغيتو التي عاش فيها الافريقيون، وذلك بسبب ظروف الارهاب المتواصل من جانب النظام. ثم ان وقوع مثل تلك الاعمال كان وفي عدد من الحالات قد استفزته الشرطة او العناصر المجرمة التي حاولت استغلال الفوضى. والشباب الراديكالي الذي كما اشرنا كان مؤمنا بالنصر خلال ٥ سنوات حاول احيانا العمل مستقلا بدون اخذ رأي الرفاق الاكثر خبرة.

لكي تصبح ثوريا في جنوب افريقيا اليوم امر غاية في الصعوبة، فالضواحي الافريقية التي لا تعرف التوفيقية تؤدي الى انزال عقوبة فورية قاسية جدا بأي من الذين يشك في عدم اخلاصهم للنضال. وأدهى وأمر هو مصير من يدعون بائعي الذمم، اي المتعاونين مع السلطات او مجرد من لا يرغب في الاسهام بشكل نشيط في النضال. وشباب الاحياء السوداء لا يطيقون الحيد عن الخط الذي اختاروه. والعديد منهم، وهذا ما يجب الاعتراف به، يحيون لاهداف آنية، وليست لديهم اية اتجاهات سياسية بعيدة الامد. وليس هنالك

ما يدهش في ان اساليبهم احيانا تتخذ اشكالا دموية مقرفة.

احيانا ونحن لا نبرر مثل تلك الاعمال نتساءل: من البادئ الاول؟ ومن زرع بذور الشر؟

في آب (اغسطس) ١٩٨٧ تحدثت مع افريقي جنوبي ابيض، شاب جاد يحكم بعقل ودراية عن الوضع الحالي للنضال السياسي في جنوب افريقيا. ادعى انه ينتمي الى الدوائر الليبرالية، انتقد الحكومة بحدة، لكنه عندما تطرقنا بالحديث الى الكونغرس الوطني الافريقي، صارت نبرة صوته شديدة ولا تطاق. وحديثه ورغم محاولته اختيار العبارات الملائمة صار مشابها لاولئك الذين يتحدثون عن المدافعين عن الحرية في بريتوريا.

واضاف: «صارت المساحات التي يغطيها ارهاب الكونغرس الوطني الافريقي شاسعة. تصوروا ماذا سيحدث اذا ما نقلوا نشاطهم الى الاحياء البيضاء؟!

اجبته بدوري: «نعم، سيكون ذلك مروعا، لكن الاحياء البيضاء تعيش بأمان لحد الان. وخلال السنتين الاخيرتين هلك في الاحياء السوداء بالذات ٢٫٥ الف شخص، وجرح الالاف، وتهدمت اعداد كبيرة جدا من البيوت، ولا يمكن ان يدور حديث عن حياة طبيعية آمنة هناك.

محدثي لم يتفق معي. وواصل: ليوقف الكونغرس الوطني الافريقي عنفه، عندها ستظهر لدى الدوائر الليبرالية امكانية الضغط على الحكومة بشكل اكبر. وعند ذاك ستضمحل فرص المتطرفين اليمينيين.

حسنا، — اجبت انا، — واضفت: لنتصور ان الكونغرس

الوطني الافريقي اوقف النضال المسلح، الان، اليوم. ورغم ذلك سيتواصل العمل بالقوانين العنصرية وسيظل السجناء السياسيون في زنزاناتهم، وستبقى حالـــة الطـــوارئ قائمة في البلاد، والكونغرس الوطني الافريقي ممنوع عن العمل العلني. فكيف سيقيمون هذه الخطوة في جمهورية جنوب افريقيا؟ باعتقادي سيفسروه كاستسلام امام القوى المتفوقة للخصم او كخيانة. والافريقيون وهذا ما تعرفه انت افضل مني، لن يوافقوا ابدا على الاستسلام. وهذا معناه ان النضال سيستمر وسيصبح اكثر اراقة للدماء ولن تحمد عقباه وبدون قيادة او خط سياسي من جانب الكونغرس الوطني الافريقي.

وتحريف مغزى الكلمات ومفاهيم بكاملها وخلق قوالب كاذبة، كلها امور جرت على مدى سنين طويلة ولا يمكن الا تؤثر تأثيرا قاتلا على نمط تفكير الناس. ورغم ان هذه الامثلة الدعائية تخصص للطبقات الدنيا تصير الطبقات العليا وبصورة لا ارادية هي الضحية لها. وهذه العملية وصفها جيدا ج. اورويل في روايته المضادة للطوباوية «١٩٨٤».

لذلك وحينما نسمع من بوتا ان الفصل العنصري لا وجود له بعد، نعتقد انه يؤمن نفسه بما يقول. وحينما يؤكد عدم وجود اية اسباب في بلاده للانتفاضات نراه هو نفسه مخلصا في ذلك. فالشبعان يتصور دوما رغد الحياة حوله، وان جميع المشاكل قد حلت منذ زمن بعيد، رغم بقاء بعض النواقص الطفيفة، ولم يستطع فهم سبب عدم رضاء الناس. وبوتا عادة ما يقول ويعيد: «مواطنونا السود اكثر السود تعلما في افريقيا

ويعيشون افضل بما لا يقاس من اخوانهم في الشمال». ثم نراه يطلع بنتيجة يتفق معها معظم البيض: «ينتفض ليس الشعب، بل حفنة من الارهابيين الذين يحفزهم على ذلك العملاء الشيوعيون.

ومثل هذه الاراء اصطدمت بها في زيمبابوا التي وصلتها قبيل اعلان الاستقلال. كانت تسمى روديسيا. قمت بلقاءات عديدة مع الروديسيين البيض الذين كان وسطهم كثير من الافارقة البيض. كان معظمهم مخلصين طيبين وكرماء اشكرهم حق الشكر والامتنان لانهم اطلعوني على بلادهم الرائعة. وكنت للعديد منهم المصدر الوحيد لانباء مغايرة تماما عما كان يعرفون عن الاتحاد السوفيتي وعن سياسته. كانوا يحكمون على سياسة بلادنا من مصادر الدعاية الرسمية لا غير.

اعترف لي شخص يقول لم نعتبر ابدا ان جميع السود هم حمر، لكننا كنا مقتنعين ان الحمر يقفون وراء كل اسود ضدنا نحن البيض.

واليوم يكرر العديد من الناس في جنوب افريقيا هذا الكلام. مانديلا بالنسبة لهم وقبل كل شيء شيوعي من تلك القوة التي كما يعتقدون هم تسعى الى احتلال بلادهم.

تجدر الاشارة الى ان مانديلا لم يخف في يوم من الايام تعاطفه مع الشيوعيين. وفي كلمته الختامية اثناء محاكمة في ريفوني عام ١٩٦٤ قال: «كان الشيوعيون على مدى قرون عديدة المنظمة الوحيدة في جنوب افريقيا المستعدة لرؤية الافارقة والتعامل معهم كبشر واعتبارهم متكافئين

معهم، وهم الذين لم يأنفوا الجلوس معنا حول طاولة واحدة والتحدث معنا والعيش والعمل معنا. وكانوا المنظمة السياسية الوحيدة المستعدة وسوية مع الافريقيين الحصول على الحقوق السياسية وعلى مكان محترم ومشرف فى المجتمع، لذلك يسعى اليوم العديد من الافريقييــن للمســاواة بيــن الحرية والشيوعية. .. نحن نعتبر الشيوعيين مؤيدين لقضيتنا فى الحياة السياسية الداخلية. وعلى الصعيد الدولى قدمت الدول الشيوعية على الدوام يد المساعدة لنا».

فى الوقت نفسه، اكد مانديلا دوما على انه ومن ناحية نظرته عادة ما يختلف مع الشيوعيين، وانه قومى افريقى. «وكما اوردت، وهذا هو الحقيقة بعينها، ان الافكار الماركسية قد اثرت فى، لكن هذه الافكار، وهذه الحقيقة ايضا، قد اثرت على رؤساء حكومات الدول المستقلة الحديثة. فشخصيات مختلفة فيما بينها اختلافا كبيرا كغاندى ونهرو ونكروما وعبد الناصر اعترفت بهذه الحقيقة. كلنا نعترف بضرورة شكل من اشكال الاشتراكية لكى يستطيع شعبنا اللحاق بالدول المتطورة فى العالم وتخطى الفقر المتقع الذى ورثناه. لكن ذلك لا يعنى اننا ماركسيين». وأحد الخلافات التى تفصلنا، — كما يقول مانديلا، — «من قرائتنا للادبيات الماركسية واحاديثنا مع الماركسيين ولد عندى انطباع ان الشيوعيين يعتبرون نظام البرلمان الغربى غير ديمقراطى ورجعى، لكننى على العكس من ذلك، من انصار هذا النظام».

يتضح من مقالات وخطابات مانديلا انه حلم بمجتمع

التناسق الاجتماعى فى مستقبل جنوب افريقيا، والذى يتمكن فيه مستقبلا توحيــد ما هو افضـــل سواء فى الغــرب ام فى الشــرق.

ويضيف مانديلا: «والمبدأ العقائدى للكونغرس الوطنى الافريقى كان ويبقى دوما هو القومية الافريقية. والقومية الافريقية لا يجمعها جامع مع النزعة التى انعكست فى شعار «رمى البيض فى البحر» والقومية الافريقية التى يميل لها الكونغرس الوطنى الافريقى هى تعبير عن الحرية وتحقيق مطالب الشعب الافريقى فى بلاده».

والقومية او التعصب القومى لدى الأفارقة من جهة ولدى الافارقة البيض من جهة اخرى يختلف بعضها عن البعض الاخر. ورغم ان الخصمين يعتبر كل منهما نفسه صاحب البلاد وساكنها الاصيل، والاثنان لهما الحق فى ذلك. ثم ان الاثنين يضعان الحرية وتحقيق آمال الشعب فى المرتبة الاولى. بيد ان الافريقيين يعمموا هذه المفاهيم على كل البلاد، والافارقة البيض يعمموها على انفسهم وحدهم. وخلافا عن الاقلية البيضاء التى تلح على البقاء على التفرقة العنصرية بمختلف اشكالها فى المستقبل القريب، تدعو الاكثرية الافريقية الى اقامة دولة موحدة لا فوارق عنصرية فيها، لا تضعفها او تمزقها الامور العنصرية او السلالية، كالتى ثبتت فى سياسة اقامة نظام البانتوستان.

بهذا بالذات يكمن الخلاف المبدئى والجدرى فى معالجة مشاكل جنوب افريقيا.

ووطنيو جنوب افريقيا يعتبرون بكل حق ان الالغاء التام وغير المشروط لجميع قوانين الفصل العنصرى وحده بامكانه فتح الطريق نحو التحولات لما فيه مصلحة كل السكان. كما ان المساواة لا يمكن ان تصبح حقيقة اذا ما بقيت السلطة بيد الاقلية البيضاء.

ودستور جمهورية جنوب افريقيا لا يشمل السود، — هذا ما قاله اوليفر تامبو رئيس الكونغرس الوطنى الافريقي، — فهم يعيشون خارج الدستور. ولا حول لهم ولا قوة حينما يجرى الحديث عن قرارات وسياسة الحكومة. وهم لا يشتركون في شؤون بلادهم، وكأنهم يناضلون خارج حدود تلك الدولة البيضاء. وذلك ليس نضالا من اجل الحقوق المدنية ابدا. واذا ما كنا جزءا من الدستور، واذا ما كنا مواطنين كالاخرين لاكتسابنا حقوقا يجب النضال من اجلها، فمثلا هناك حقوق يجب النضال من اجلها فى الولايات المتحدة الامريكية، الا ان الامر مغاير جدا في جمهورية جنوب افريقيا. فنضالنا بالاساس هو نضال وطنى تحررى.

... ونيلسون مانديلا السجين يمنح سنويا جوائز دولية ومراتب شرف من جامعات العالم. فعلى شرفه يطلقون اسمه على الشوارع. وتكتب عنه كتب وكثير من المقالات سنويا. وكرس له ستيفى ووندر المغنى والموسيقار الامريكى المعروف احدى اغانيه. اضافة الى ذلك كله اطلق اسمه علي احدى جزيئات المادة التى اكتشفت اخيرا.

* * *

القليل منا يتذكر كلمات يان سميث رئيس عصابة العنصريين الروديسيين الذى اعلن وقبل سنوات من حصول زيمبابوا على الاستقلال ان لا نهاية لادارة الاكثرية السوداء حتى بعد الف عام. وحينها دعا الروديسيون المتطرفون، كما هو الحال اليوم بالنسبة لتجمعات الافارقة البيض المفعمين بروح الفاشية الى النضال «حتى النصر». وحولوا مساكنهم الى قلاع لا تقهر كما بدا لهم، وعلموا اطفالهم استعمال البنادق الرشاشة واحتفظوا بالقنابل اليدوية قريبة منهم. وهلعهم اخفوه بدروع مضادة للرصاص يلبسونها تحت ملابسهم حين ذهابهم الى العمل وكانت مسدساتهم جاهزة للاستعمال دوما. كانوا يفهمون ان عددهم قليلا لذلك استأجروا آلاف المرتزقة من كل العالم. وعلى مضض كبير قدموا السلاح للافارقة ليدافعوا عن اسيادهم البيض المترفين.

بقيت روديسيا فى الذاكرة فقط ومنذ زمن بعيد. واتضح ان كلمات سميث بصدد حكم الالف سنة مرادفا لسخافة سياسية. بيد ان هناك تناقضا ظاهريا: نفس تلك الكلمات تقريبا يكررها اليوم الرئيس بوتا، وحكومة جمهورية جنوب افريقيا تنهج اليوم نفس الطريق الذى نهجته حكومة سميث فى آخر سنواتها: هجمات على الدول الافريقية المجاورة، مواصلة عسكرة المجتمع، استخدام المرتزقة، محاولات استكلاب الافارقة واحدهم ضد الاخر، المغازلة مع زعماء الاكثرية «المعتدلين»، رفض قاطع

لمبدأ «رجل واحد، صوت واحد» – كل ذلك كان فى روديسيا واثبت فشله منذ زمن بعيد.

وكما هو الحال فى روديسيا لم تستطع جمهورية جنوب افريقيا حل مشاكلها بقوة السلاح. فالفصل العنصرى لا ينقذه الجنود المدربون بشكل جيد، ولا احدث السلاح، ولا حتى الاسلحة النووية، التى تنتج سرا فى مختبرات جنوب افريقيا. فسميث هو الاخر كان يملك جيشا جيدا.

وعدم جدوى واخلاقية الفصل العنصرى تضحى واضحة للعيان للكثير جدا من البشر، وصارت تصل الى وعى الافارقة البيض انفسهم. فقد صارت تسمع اكثر فأكثر اعترافات مرة بان نظام الظلم العنصـــرى يجلب الشر لجميع الافريقيين الجنوبيين.

ستمر الاعوام وسيخمد الفصل العنصرى وتخمد الدولة البيضاء، والحزب المتعصب القومى، ومجرمو عصابات تيربلانش. فالنظام البربرى الظالم محكوم عليه بالفشل وسيكنس من على وجه الارض. لكن تحقيق ذلك متعلق بمستقبل افريقيا الجنوبية. ففى هذا النزاع لن ولا يمكن ان تكون حلول بسيطة. وعلى من يتعلق به سير الاحداث ان يعلم بان دائرة العنف المستمرة طويلا تهدد بتحويل هذا الاقليم الى منطقة توتر دائم تهدد السلام العام بالخطر. ولهذا بالذات يتحتم تنشيط البحث عن طرق لحل هذا النزاع سلميا، وابداء تفكير جديد يتلاءم مع واقع اليوم الحاضر.

فى نفس الوقت يعى الافارقة البيض والافارقة السود فى

جنوب افريقيا بان النضال سيجرى بحدود المطالب القصوى التى تم تحديدها. فالاقلية تطالب بضمانات دستورية لحقوقها، وامتيازات، وعدم الاعتراف بمفهوم «رجل واحد — صوت واحد» وتقترح اقامة دولة غير مركزية. ويلح الاكثرية على الحصول على ضمانات ليست جماعية، بل فردية، وعلى مبدأ «رجل واحد — صوت واحد»، وعلى مواطنة موحدة، ودولة مركزية واحدة، والغاء جميع الامتيازات القائمة على اساس عنصرى. ومهما بدا تحقيق هذه الامور صعبا، ينمو وسط جماهير كلا المعسكرين فهم ان التوفيقية ليست فقط ممكنة، بل وحتمية.

وفى نهاية المطاف يتحمل المسؤولية عن مصير افريقيا الجنوبية كل الافريقيين الجنوبيين سودا وبيضا. وبهم وحدهم يتحدد الطريق الذى سيأتى عبره السلام والعدالة الى ارضهم.

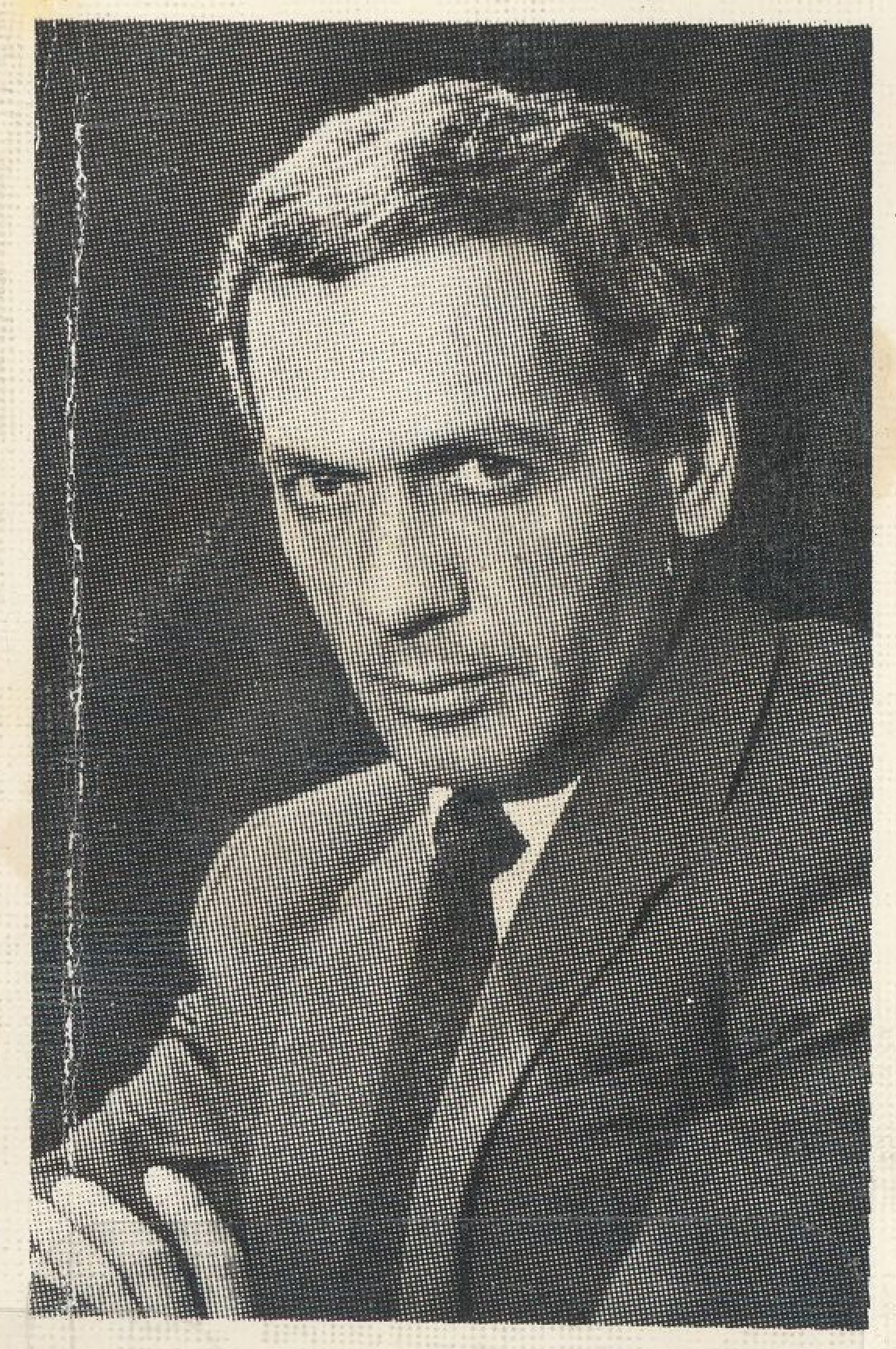
Борис Рубенович Асоян

ЮАР: ЧТО ВПЕРЕДИ?

на арабском языке

Цена 30 к.

جمهورية جنوب افريقيا: ماذا ينتظرها؟



يعتقد المؤرخ السوفيتى بوريس أسويان «انه لا تزال فى جنوب افريقيا بعد فرص للحل السلمى».

ولد بوريس أسويان ... عام ١٩٤٥، وتخ... الدولية وحاصل ... فى العلوم التاري... مراسلا لمجلة ... دول شرق وجنو... عدد من الكتب ... مشاكل افريقيا المعاصرة

دار نشر وكالة «نوفوستى»